شعب البالوعة العظيم

شعب البالوعة العظيم

مجموعة قصصية

د. فاطمة الزهراء الحسيني

شعب البالوعة العظيم

مجموعة قصصية

اسم الكاتبة: فاطمة الزهراء الحسيني

تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية للنشروالتوزيع

تصميم الغلاف: د / منـى الحسيني

الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم

رقم الإيداع: ١٤٠٩٨ / ٢٠١٨

طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

جميع الحقوق محفوظة

المقدمة

أحدّثكم من أكثر الأماكن ازدحامًا.. هنا القاع! حيث الفوضى هي القانون الحاكم، والجميع يداه ملوثتان بالقذارة.. إلا من استطاع غسلَ يديه بمياه نظيفة، بعد أن أخفى آثار جريمته!

ولأن الماءَ النظيفَ لن يكون إلا على السطح.. فأدعوكم جميعا للصعود إلى أعلى.. ليس لبَدْءِ حياةٍ جديدة، إنما لنغسل أيدينا، مما عَلِقَ بها من جرائم، لن تتركنا جميعا نحيا بسلام.

في رحلة صعودنا إلى السَّطح.. علينا أن نفتح أعيننا جيدا، على قَصَصٍ لا يمكن تجاهلها.. أَخْفَتْها الظلمةُ محاولةً قتلَ القضية، وإخفاء آثار الجريمة.

ولأنه لا أحد قد يَوَدُّ فتح الباب، أمام الطاعون الذي لن يرحم أحدا.. كان لزاما علينا، أن نعرف أصحابَ القصص، الذين قَضَوْا نَحْبَهُم بين ثنايا هذا الكتاب؛ لكي لا يعودوا إلينا لاحقا، في صورة أشباح معذَّبة!

د. فاطمة الزهراء الحسيني

لا شيء في الدنيا يساوي أن نكذب أو نخون أو نظلم.

لا شيء يدعونا لأن نخاف.. و الخائف سوف يتمدد إلى جوار الذى يخاف منه بعد قليل، و الجبان لن ينجو من الموت و الرعديد سوف يسبق الشجاع إلى حتفه.. و سوف تتفكك هذه البنايات و تنهار تلك العمائر الجميلة كأنها ديكور من ورق اللعب، و سوف تزول هذه الزخارف كأنها نقش على الماء.. و لن تبقى إلا شواهد قبور.. ثم تغور الشواهد في التراب أو الرمال.. ثم لا يبقى أسم و لا رسم.

د. مصطفى محمود

كتاب الإسلام في خندق

تنبيه!

إذا كنت ممن يقدّسون الاستقرار، ويَخْشَوْنَ أن تتغير حياتهم دفعة واحدة؛

أرجوك.. لا تقرأ هذه المجموعة؛

لأنّني لن أتحمَّلَ مسئولية سقوط ضحايا جدد!

بداية..

كانت الحقيقة!

(١)

بعيدًا عن القصف!

تزوجتُ في البلدة التي احتلّها أوصوليّون متشدّدون.. وفي ليلة ذات بأسٍ أتاني مَخاضٌ عسير، وكنت أَعَضُّ على يد يوسف، لكي لا يسمع الأصوليون صُراخي؛ فيعلموا بقدوم الطفل، فيأخذوه منّا بحُجة أننا غير مؤهَّلين لتربيته.. لم أصرخ.. ثم وكأنني كُوفئت بمعجزة أخرى.. فبينما كانت تُخرج الداية الجنين الأول، لمحت جنينا آخر ينتظر دوره في الخروج!

- أبشري يا آمنة، إنه توأم.. ماذا ستسميهما يا يوسف؟

- ليكونا الحسن والحسين!

بميلاد الطفلين، ومخاوفي المعلَنة والمستترة، أخذت في الاتساع والكبر، وأنا لا حيلةَ لي إلا الالتفاف حول الطفلين.. كلما سمعتُ صوت طائرة مروحية.. أو دبابة صهيونية.. أو تأخر يوسف في العودة إلى البيت.. كنتُ أبكي مع الطفلين.. بكاءَ جُوعٍ.. بكاءَ رَهْبة.. بكاءَ أَلَمٍ في المَعِدة.. بكاءَ الصقيع الذي سكن قلبي يوم ميلاد الطفلين، تِجاه القضية والوطن!

- من ينصر الوطن يا آمنة؟

يسألني يوسف في كل مرة أحدّثه فيها، بشأن فرارنا إلى المدينة الو اقعة خلف السور: "من ينصر الوطن يا آمنة؟".

فأجيبه:

"لا يستطيع ولداي فعلَ المستحيل يا يوسف"!

- هل خذلناك يوما يا آمنة؟!

- القضية ليست مَن خَذَلَ مَن، يا يوسف.. أنا أمٌ خائفة.. خائفة من أن ينهدم بيتي على طفليّ.. ليس على حَجَرِ البيت أخشى.. إنما على طفلي هذين.

- أحياء عند ربهم يرزقون، يا آمنة!

- ونعم بالله، يا يوسف.

في تلك الليلة لم يتوقف حديثي مع يوسف، عند هذا الحد كما كان يتوقف في كل مرة.

أكملتُ:

-"ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به، يا يوسف".

- ليكن لكِ ما تشائين يا آمنة.. اذهبي إلى المدينة الو اقعة خلف السور.

- وماذا عنك يا يوسف.. ألن تأتي معنا؟!

- سأبقى أنا وأحد الطفلين.. ستختارين منهما من تشائين يا آمنة!

- أنت تمزّق قلبي يا يوسف!

- لعل أحدَهم يَنْجُو يا آمنة!

- لماذا لا نَنْجُو جميعا يا يوسف؟

- اختاري أحدهما، قبل أن أغير رأيي!

- لن أختار.. سأدعُهُما يختاران مصيرَيهما.

كانا قد أتما السنة الأولى، قبل شهرين من الآن.. وديعين.. بريئين.. أحدهما سيذكر أنه كان لديه أم أحبَّتْ أخاه أكثر منه!

دعوت التوأمين للحضور إليّ.. كانا في بداية تعلمهما للمشي.. وكنت أنوي أنه من سيأتي إليّ فهو أكثر محبةً لي؛ واعتمادا علي.. لذلك سوف أخذه معي!

عندما دعوتُ الطفلين.. نظرا تجاهي.. وتسابقا نحوي.. بينما يَخْطُوان خُطْواتِهما نحوي، كان قلبي يُمزَّق بسكين ثَلِمَة.. وبينما أنا أراقب الطفلين سقط الحسن.. فَهَرَعْتُ إليه.. ضممتُه نحوي بقوة.. أخذت أبكيه، وأبكي أخاه، ونفسي!

- سأترك لك الحسين.. إنه الأكثر قوة، ليس بحاجة إليّ كحاجة الحسن لي.

احتضنت الحسين ويوسف معا.

- بالله عليك، فكّر في الأمر مجددا يا يوسف!

- لو فكرتُ لن أدعكما ترحلان!

- لا، أرجوك.. على الأقل قد يَنْجُو أحدُهما!

ما أن وصلنا إلى المدينة الواقعة خلف السور.. بدأ الحصار!

حصار كيف؟! هنا، لا أصوليّين ولا متشددين؟

هنا أخ أكبر، يحاول النَّيْلَ من متمرِّدي الدولة والمرتزقة.. والفَوْضَوِيّين. ثلاثة أشهر.. وقد كَفَّ الجميع عن تصميد الأموال.. إذن لن يملك وقتا لاحقا لإنفاقه.. كما أن المال أصبح بلا قيمة.. فلا سلعَ متوفرة.. ولا أدوية! لو أن أحدهم يستطيع إعادتنا إلى يوسف والحسين.. نحن لسنا المستهدَفين من هذا الحصار.. لقد أتيناكِ فرارا من الموت.. أفلنقى الموت بين يديكِ؟!

جَفَّ لَبَنِي.. وهُزِلَ ولدي.. وتمكَّنَتْ الكوليرا منه.. وبينما هو ينظر إليَّ، شَعُرْتُ أنه يريد الموت في أرضه!

دخلتُ المستشفى، وأنا أحمل بين بيدي ولدي.. أصرُخ في طاقم الأطباء والتمريض.. الذين يدَّعون أنهم يواجهون المرض بلا سلاح.. يواجهون الوباء بدون خُطة.. سوى الاستسلام الحار، والتسليم بأننا فعلنا كلَّ ما في وُسعنا!

وما الذي في وُسعنا.. انتظار الموت؟!

وبينما الحسن يلفِظ أنفاسَه الأخيرة، يُخرجني من جنوني صوتُ المراسلة التي تغطي الأخبار في البلدة المحتلة: سقوطُ قذيفة هاون صباحا على المنطقة، بقرب الجامع.. أنظر إلى التلفاز الذي ينقل للعالم صورة يوسف وبين يديه الحسين شهيدا مغطى بالدم!

أنظر إلى الحسين.. "أحياء عند ربهم يرزقون"!

يلفِظُ الحسنُ أنفاسَه الأخيرة.. وُلدا معا، وماتا معا!

أحمل جُثْمانَ الحسنِ الطاهر الذي لن أغسلَه.. لأحاول تهريبَه عبر المعبر ليُدفَن في أرضه بجوار أخيه!

المعبر مغلق.. ولا أمل في العبور!

تمكَّنَتْ منيّ الحُمَّى.. دفنَنا الغرباء.. وضعوا فوق قبرنا حجرًا.. نقشوا عليه وصيتي: "أحياء عند ربهم يرزقون.. بعد أن يفتحوا المعبر؛ ادفنوا الحسنَ بجوار الحسين، في أرضنا الأبِيَّة"!

كانت تلك وصيتي، التي وصيتُ بها جارتي في صف الانتظار الطويل، عند باب المعبر التي أظن أنها هي الأخرى لن تصمد طويلا.. أتمنى أن توصي بوصيتها ووصيتي إلى أحد قد يصمُد طويلا!

(٢)

دُمْيَتي التي تعرف كل شيء!

مُؤْلِمَةٌ تلك التفاصيل.. وما تحت السجاد من خبايا! دُميتي التي تعرف كل شيء، وشهدتْ على كل شيء .

كانت من ذلك النوع من الدمى، التي لن تزيد حياتها بأي حال من الأحوال عن عامين.

لكنها دُمية تعيسةُ الحظ؛ ستقضي ما تبقّى من حياتها تَعِسَة.. لأن آلة التصنيع تعطَّلَتْ أثناء تصنيعها بعُطْلٍ فني جعلها تخرج إلى العالم مُشَوَّهَة! مصير أمثالها الإعدام؛ لأن إخراجها إلى سوق العمل، سيضع المَصنعَ المُصَنّعِ لها مَحَطَّ سخرية.. وستجعله في أزمة دائمة مع المنتج والمستهلك صاحب الجيب الثقيل.

أما المستهلك صاحب الجيب المثقوب.. ستعجبه جدًّا، وسيحاول سرقتها وإنقاذها من الإعدام؛ ليهديها إلى ابنته الرقيقة جدا "ميسون"! أخفى "محبوب" العاملُ المسئول عن إعدام هذه الخطايا، الدميةَ المُشوَّهة بين ثنايا ثيابه.

كان الوقت متأخرا.. وكان العمال قد انصرفوا إلى منازلهم!

إلا هو.. العامل المُنْهَك والمُنْهَمِك في إخفاء جريمته!

انتظروقتًا طويلًا لكي لا يفتضح أمرُه!

كان عالقا بين شوقه إلى إبتسامة ابنته ميسون، وخوفه الشديد من العقاب الذي ستدفع عائلته ثمنه باهظًا.

أخيرا.. انتصرت رغبته في احتضان ابتسامتها التي ستفرح بهدية والدها المشوَّهة!

أُعيد على مسامعكم:

كان الوقت ظلاما.. وكان العمال قد انصرفوا إلى منازلهم ..إلا أبا ميسون والدمية التعسة التي ستفضح لنا الخبايا.

ترامت إلى حياة محبوب أبي ميسون كارثة.. حين سمع الشجار الذي حدث بين الشريكين!

لقد تلاعبتَ بي وغَشَشْت.. لقد زوَّرتَ الأوراق.. ونقلت ملكية شركتي إلى ملكيتك!

أصاب محبوبَ الرعبُ والذهول!

حاول إخفاءَ نفسه، في الظلمة؛ لكي لا يشعر أحدهما بوجوده.. ويَرَيا الدميةَ التعِسة بين يديه.

لم يكن ليستوعب، أن ما سيعاقَب عليه شيء أعظم من دمية مشوَّهة.. ما سيعاقَب عليه أمر لم يفعله مطلقا!

تَحَسَّسَ الدُمية المختبِئة في ثنايا ثيابِه.. ضَمَّها إليه بقوّة.. ضَغَطَها لكي لا تظهر.

الشجار على أشده!

- نعم يا سالم.. أنا زورتُ توقيعك.. ونقلتُ ملكيتك.. و أفسدت حياتك. ثم دعني أفشي لك سرًّا.. لقد قتلتُ والدَك..دَسَسْتُ له السُّمَّ في فنجان قهوته..بعدما زورتُ أور اقًا تثبت تنازلَه لي عن حصة تبلغ عشرة بالمئة من أسهم الشركة!

-لقد كان والدي يثق فيك كثيرا، يا أمين.. لقد كان يحبك كما لو كنت ولدَه.. لذلك لم أتعجّب حين رأيتُ الأوراق التي تثبت تنازله لك عن تلك الحصة.

- ما يدريك أنت، بما كان يحدث من خلفك؟! من قال لك أنني لم أكن ولدَه.. كنت ابنه الذي قرر أن لا يعترف به أبدا.. ليحتفظ بجاه والدتك وسطوة أبيها. عشتُ حياتي كالدُّمى المشوَّهة التي نعدمها في مصنعنا!

عشتُ حياتي منبوذًا أدفع ثمن شيءٍ لا أعرف بالتحديد ذنبي فيه.. أتعرف بمَ تشعر الدُّمية المشوَّهة المنبوذة؟! إنها تنتظر كل ليلة الإعدام بشوقٍ لتتخلَّص من نظرة الكراهية والاشمئزاز التي تلاحقها من أعين المحيطين بها! أن تشعر أنك شخص غير مرغوب فيه، شعور قاتل.. وأعظم ما يستحقه والدك يا سالم.. أن يحصل "النكرة غير المرغوب فيه" على كل شيء.. السلطة والمال.. أن يحصل على كل شيء يا سالم!

- لن تحصل على شيء يا أمين!

قالها وهو يخرج مسدسه الغاضب في الظلمة!

- سأقتلك يا أمين.. سأنهيك أيها غير المرغوب فيه! مِتْ يا أمين!

سمعها محبوب.. وهو يرى الطلقة المشتعلة المتجهة صوب قلب أمين.

ارتجف قلب محبوب، وارتعدت يد سالم؛ فسقط المسدس من يد سالم!

وسقط محبوب مغشيا عليه.. وأثناء سقوطه ارتطم بزجاجة فارغة! سمع سالمٌ صوتَ الزجاج المحطَّم!

صرخ: من هناك؟!

أضاء أضواء المصنع، واتجه إلى مصدر الصوت.. لاحظ شخصًا لا يدري إن كان يعرفه أو لا يعرفه.. مُمَدَّدًا على الأرض، يرتدي الزي الرسمي لمصنعه.. لعله أحد عماله الذين لم يكن يهتم بوجودهم.

الأحمق.. لعله سمع كل شيء.. سيوصلني بأريَحِيَّة إلى حبل المشنقة!

قام بسحب محبوبٍ إلى المكتب الرئيسي لمصنعه.. هناك حيث تتمدَّدُ جثة أخيه، فارغة الروح سعيدة بالخلاص من نظرة الاشمئزاز التي كانت تلاحقه.. وضع المسدسَ في يد محبوب الباردة.. أرد أن يبدو موتُ محبوب انتحارًا، بعد سرقته وقتله لأمين الذي اكتشف سرقته وحاول منعه من الفرار!

أطلق الرصاص على رأس محبوب.. كان منهمكا في إتقان خطته لدرجة أنه لم يتحسّس نبض محبوب الذي فارق الحياة، إثر هبوط حاد في الدورة الدموية وقت فزعه ورؤيته الرَّصاصة المشتعلة!

نظّف سالم الأرضية جيدا وأزال البصمات من على مسدسه غير المرخَّص! ودَسَّ مبلغا كبيرا من العملة الصعبة بين ثنايا ثياب محبوب!

رأى الدمية المشوَّهة.. أخرجها من مخبئها..نظر إليها..وقال: "اللعنة على هؤلاء المشوَّهين الذين لن يدعونا ننعم بحياة سوية"!

ثم ترك الدمية المشوهة بجوار محبوب.. وعاد إلى منزله وتدثّر بفراشه الوثير محاولا عبثًا نسيان ما قد حدث.

فضح الصباحُ جريمةَ البارحة.. عندما قام أحد عمال النظافة بفتح باب غرفة المكتب الرئيسي لتنظيفه وترتيبه.. صرخ العامل صَرْخَةً مُدَوِّية؛ اجتمع على إثرها جميع العاملين..

في هذه الأثناء وصلت زوجة محبوب، التي لم تنم ليلة البارحة؛ قلقا على زوجها الذي لم يعد إلى الآن إلى منزله!

جرت باتجاه الصوت، وهي تَجُرُّ صغيرتها ميسون، آملةً أن يكون من اجتمع حوله العمال أحدًا غير عائلها الوحيد.. حاولتْ اختراق الأجساد التي تسدُّ باب غرفة المكتب، وصلت وهي ترتجف.. صرخت!

حاولوا تهدأتها..لم ولن تهدأ!

أفلتت صغيرتها من يدها.. وانهارت تبكي.. توجهت ميسون نحو جثة أبيها المُمَدَّدة!

لا تعرف ما يعنيه الموت.. ظنَّتْه نائما.. لم تحاول إيقاظه.. أمسكت بالدُّمية القريبة منه.. فرحت بها احتضنتها.. أَحَبَّتْ هذه الدمية المعبأَة برائحة عَرَقِ والدها الكادح!

وصل رجال الشرطة والتحقيق.. وضعوا الحواجز، وقاموا بالبحث عن الأدلة والتفاصيل!

مرتْ عدة أسابيع.. أُغلق التحقيق.. بحُجة أن الأمر سهل لا يحتاج إلى التعقيد.. هناك قاتل واحد، وهناك ضحية واحدة!

أُغلق التحقيق، متجاهلين حقيقية أن كل الأدلة تشير إلى وجود شخص ثالث في مسرحِ الجريمة.. كل الأدلة تشير إلى أن جثة محبوب الممدَّدة أرضا لا تمت صلة بجريمة قتل أمين! تقرير الطب الشرعي بيّن أن سبب الوفاة هبوط حاد في الدورة الدموية.. وأن الرصاصة التي اخترقت رأسه تترواح بين ربع ونصف الساعة من وقت الوفاة! الجُرح الذي في رأس محبوب حدث ساعة الوفاة، ولا يوجد في مسرحِ الجريمة الزجاج الذي ارتطم به محبوب.. المكان لا يدل على شجار.. البصمات المَمْحُوّة قصدا.. كل هذه الأشياء تدل على وجود شخص آخر، لكن التحقيق أغلق، ودمع زوجة محبوب لن يجفّ!

إنها تعرفه.. تعرف قلبه.. وتفاصيل رُوْحِه.. تحفظه عن ظهر قلب.. تبكي وهي تفكّر في عَجْزِها حيال تبرئته.. تبكي وهي تنظر إلى طفلتها المحبوبة ميسون، وهي تمشّط شعر دميتها المشوهة، تبكي وهي قليلة الحيلة حيال نظرة عار ستلاحقها وصغيرتَها إلى الأبد! هي بحاجة إلى دليل.. لكي لا يكفّن زوجها الشريف بالذل.. لكي لا ترتدي هي وصغيرتَها ثياب المَهانة..لكي تُخْرِسَ الأعينَ اللئيمةَ التي تحاول تمزيق روحيهما بدناءة..

لكن العجز صارخٌ في أجوائها يكبّل رُوْحَها.. يخنِقها.. يتلاعب في إشعال حقدها.. تجاه قاتل مُتَخَفٍّ بلباس رجل شريف!

هل تراها تعرفه؟! تشعر به؟!

دَوْرُها ليس البحث عن جاني.. إنه دور رجال الشرطة والتحقيق الذين تَخَلَّوْا عنه ببساطة مقابل الراحة.. مقابل السلبية.. لا جدوى من معرفة القاتل الحقيقي.. هناك جثة مقتولة.. وجثة يجب أن تكون قاتلة.. لكنّها مضطرة لفعل أي شيء، و أفضل من قد يساعدها صديق المغدور به أمين!

سالم.. صاحب المصنع الذي سيود بالتأكيد أن يجد قاتل شريكه وصديقه الوحيد!

تفاجأ بها سالم، وهي تطرق باب مكتبه.. ظنَّها جاءت تطالب بمستحقات زوجها!

لكنها جاءت تخبره بكل ثقة أن زوجها بريء، وأن عليهما البحث عن الجاني الحقيقي!

نظر إلى عينيها.. أرعبته الثقةُ التي تنظر بها!

تساءل:

من أين جاءت بهذه الثقة؟!

هو يعرف أن النساء يملكن مجسات خاصة لا يمكنها أن تخطئ أبدا! اشتاط رعبا... طردها!

- ألا تخجلين من وقوفك أمامي يا أرملة قاتل صديقي الوحيد؟!

- لكنك تعرف أن زوجي بريء.

قالتها وهي لا تدري إن كان يعرف ذلك أم لا.

ارتعابه.. الخوف في عينيه.. جعلها تدرك أن مفتاح القضية يبدأ من عنده هو!

ماذا يُخيفه.. وما الذي يُخفيه؟!

الأيام ستفضح القصة.. لكنها لن تدع شيئًا للأيام!

ستذهب إلى المصنع في احتفاله السنوي الذي سوف تغطيه وسائل الإعلام.. وستحكي للناس عن القضية.. ليساعدوها.. آهٍ.. لو أنها تمتلك دليلًا! تمنتها بشدة وهي تنظر إلى ابنتها المنشغلة بتمشيط شعر دميتها المشوَّهة!

آهٍ.. لو أنها تمتلك دليلا واحدا يطهّرهما من الرجس الذي يحاول تلويث حياتهما!

حضرت الاحتفالية.. جميع العمال يتجنبون الترحيب بها وبابنتها ميسون.. فهي أرملة العامل الذي لقي حتفه جراء طمعه.. وتلك ابنة القاتل..الجميع يصفّق.. للعامل المثالي.. للموظف المثالي!

الجميع يصفّق ويصفّق.. وهي جالسة قريبة من سالم.. تنظر إليه بحَنَق.. وقع بصره عليها، شَعُر أنها تعرف كل شيء وستفضح كل شيء!

أمر حرّاسه بطردها خارجا!

صرخت.. التفت إليها الجميع!

يقول: دعوها؛ إنها طامعةٌ كزوجها.. تحاول ابتزازي!

تنظر ميسون تجاه الرجل الذي يصرخ على والدتها.. إنه هناك يقف خلف المنصة

تقترب منه والجميع منشغل بوالدتها..

تنظر إليه ميسون بحقد شديد.. تصرخ: بابا بابا.. يلتفت إليها.. تفاجئه الدُّمية المشوَّهة.. يتذكر أخاه.. وجريمته!

ينفعل.. يأخذ الدُّمية من يد ميسون.. يضربها بقسوة في المنصة.. يحاول تحطيمها.. يسمع صوت أخيه أمين.. وصوته.. عبر مكبّر الصوت.. الصوت يخرج من قلب الدمية المشوَّهة..

يحاول إيقاف التسجيل الذي سجل كل شيء!

لكن الدمية تحكي كل شيء...!

- نعم يا سالم.. أنا زورتُ توقيعك.. ونقلتُ ملكيتك.. و أفسدت حياتك. ثم دعني أفشي لك سرًّا.. لقد قتلتُ والدَك..دَسَسْتُ له السُّمَّ في فنجان قهوته..بعدما زورتُ أور اقًا تثبت تنازلَه لي عن حصة تبلغ عشرة بالمئة من أسهم الشركة!

- لقد كان والدي يثق فيك كثيرا، يا أمين.. لقد كان يحبك كما لو كنت ولدَه.. لذلك لم أتعجّب حين ر أيتُ الأوراق التي تثبت تنازله لك عن تلك الحصة.

- ما يدريك أنت، بما كان يحدث من خلفك؟!

من قال لك أنني لم أكن ولدَه.. كنت ابنه الذي قرر أن لا يعترف به أبدا.. ليحتفظ بجاه والدتك وسطوة أبيها.

عشتُ حياتي كالدُّمى المشوَّهة التي نعدمها في مصنعنا!

عشتُ حياتي منبوذًا أدفع ثمن شيءٍ لا أعرف بالتحديد ذنبي فيه..أتعرف كيف تشعر الدُّمية المشوَّهة المنبوذة؟! إنها تنتظر كل ليلة الإعدام بشوقٍ لتتخلَّص من نظرة الكراهية والاشمئزاز التي تلاحقها من أعين المحيطين بها!

أن تشعر أنك شخص غير مرغوب فيه، شعور قاتل.. وأعظم ما يستحقه والدك يا سالم.. أن يحصل "النكرة غير المرغوب فيه" على كل شيء.. السلطة والمال.. أن يحصل على كل شيء يا سالم!

- لن تحصل على شيء يا أمين!

سأقتلك يا أمين.. سأنهيك أيها غير المرغوب فيه! مِتْ يا أمين!

(صوت طلقة رصاص).

الدميةُ المشوَّهة عندما ضغطها محبوب، لكي يخفيها؛ قامت بتسجيل كل شيء..

والقضية الآن.. أصبحت أكبر من أن تُغلق بسبب التكاسل والإهمال!

(٣)

ظلّ شَبَح!

(١)

ما يزعجه كونُه غير مرئيّ!

لا أحد يراه، ولا أحد يستطيع سماعه!

يلوّح، ولا أحد ينظر تِجاهه!

يحاول طَرقَ الأواني المستطرقة.. لكنها تخالف توقعاته وتتآمر مع الجميع لتزيد الوضع سوءًا!

يحاول هَزَّ الأبواب والنوافذ!

يحاول رفع الستائر.. أو الظهور كظل!

لكن لا شيءَ يُحدث أثرًا، وربما لن يجدي نفعا.. سيظل تائهًا لا مرئيًا، حتى يُحدث أثرًا!

اليوم أول أيامه في عمله الجديد!

سنوات قضاها، في أماكن كثيرة.. يلعب دور الرجل غير المرئي!

يتنقل من مكان إلى مكان حاملًا غضبه على مجتمع يراه شيئا ليس ذا جدوى!

يهرُب إلى نظراتهم.. يبحث عن صورته في مخيِّلاتهم.. إنهم لا يتحدثون عنه أبدا.. لا يذكرونه بالخير ولا بالشر!

يقف مذهولًا أمام رغبته في لَفْتِ الانتباه حتى لو بنَعْتِه بأشياء قد تسيء إلى

سمعته!

المُهمّ أن يصبح حَدَثًا مهما أو فقرة ما!

حتى لو خبرًا في جريدة الحوادث!

وحيد جدا.. تتكالب عليه الظروف يوما بعد يوم.. يدرك أنه لا يمكنه تخطّيها، ولا يمكنها تخطّيه!

هي وحدها من تراه فتذهب إليه.. هي وحدَها من تريده.. اختارته هو من بين الجميع.. لذلك قدّرلها ذلك، وتصالح معها.. إنها المصائب!

(٢)

رآها.. وكيف لا يراها وهي واضحةٌ أكثرمن اللازم.. جميلةٌ أكثرمن اللازم.. ناجحةٌ أكثرمن اللازم.. بارعةٌ أكثرمن اللازم ..عبقريةٌ أكثرمن اللازم.. تستطيع فعل أي شيء وإصلاح كل شيء.. وهو الذي دون عمد يفسد كل شيء!

شيء ما دارفي نبضه!

"أهو الحب؟!".

تساءل وهو يتمنى أن لا يكون لحنُ نبضه حبا!

يتمناه انبهارًا.. احتياجًا.. ادعاءً.. أي شيء غيرالحب!

تتمادى النارفي إحراق قلبه.. يشعربالحسرة والحزن والعجز!

لن تراني أبدا.. ولن تشعربي.. أنا لونٌ أسود في مكان مظلم!

أنا ظلٌّ غيرموجود لشبح غيرمرئي، وهي كالشمس يلتفّ حولها الجميع!

يحاول أن لا يخطئ.. لكن أخطاءه كثيرة!

يحاول ويجرّب أن يبدو أمامها شيئا مرئيا!

و هي تنظر تجاه شيء غير مرئي!

أتراها ستبصره؟!

(٣)

تنظر إليه بعيني شفقة.. يبصر ولا يكاد يجزم فتدعه فريسةً لأوهامه!

توزع حنانها على الآخرين.. ولأول مرة كان هو من ضمن الآخرين!

حنانها يزيد من قهره.. قلبُه يؤلمه ألما من نوع مختلفٍ!

لأنه حيث هو.. مقهور دون مبرر، مذلول بطريقة مثيرة للشفقة!

يفهم من مساعدتها له:

"لا تتحطّم.. سوف أساعدك.. لديك قوى، لكنك لا تحسن استعمالها"!

رعدة خوف ترجّه وتشله وتربكه وهو يحاول الخروج من الظلام لأجل أن لا يخذلها هي

لكنه بارع في الفشل.. صديق للمتاعب.. ذُعْرُه من أن لا تراه جديرا كما يراه الآخرون،

يزيد الوضع سوءا!

لكنه قرّر الانسحاب حين رآها تحارب لتصبح مرئية في حياة أمجد!

أمجد.. ذلك الشاب الوسيم المتميز الذكي جدا.. والعبقري إلى الحد الذي

يُصيبها بالذهول!

ذُعْرُها من الفشل أمامه، جعلها مضطربة طوال الوقت؛ لأن ما يهمها حقا أن يراها امرأة استثنائية.

(٤)

"ونحن لا نحب إلا الشخص الخطأ".

دسّها الرجل اللا مرئي بحسرة في نفسه، وهو يَسْتَرِقُ النظرَ للمرأة الوحيدة التي تمناها، وهي مشغولة عنه بالدوران في فَلَكِ أمجد!

يختنق كلما رآها تتحدث مع أمجد.. أو تَسْتَرِقُ النظر إليه.

يموت ألف مرة، وهي تجري خلف كتلة من الضباب المتحرك!

الذي لن تستطيع إمساكَها بين يديها!

وجودها يسعده ويضايقه في آنٍ.. يحاول أن يتحاشاها؛ لكي ينساها، لكنها حاضرة بقوة في مخيلته.

لا أمل له فيها.. وهو عاجز عن فعل أي شيء حيال هذه القضية!

لن تراه.. لم يعد هناك مجال للشك.. لكن شيئًا كالوَهْمِ جعله يتشبَّثُ بها!

كَرِهَ عَجْزَه وذله.. كرِه قلة حيلته.. يحاول التحرك، لكنه لا يحسن المشي!

تورّط في حبٍّ لن يجلب له السعادة!

تورّط دون أن يشعر!

وأمجد هناك يكابر.. وهو لا يدرك أن المرأة لا يمكنها تجاهل الرجل الذي لا يعيرها انتباهه!

(٥)

ما اسمه الرجل اللا مرئي؟

لا أحد يهتم لمعرفة اسم الرجل اللا مرئي.. ولا أحد يذكر قصته،

كأنه كان بخارا!

يعصف الحزنُ بنا ليُسقط أور اقنا فيَدْهَسُها أيُّ عابرٍ لا يُهمه أمرُنا!

نحترق في صمت.. نذبل.. نتبخّر ونتلاشى!

إلا إذا أصابتنا عدوى التحرر من الحزن.. والتمسنا دروبَنا نحو اللا مبالاة!

وتوقَّفْنا عن خوفنا من رؤية فشلنا في مرآة الناجحين!

"لا أحد يعرف قيمتي الحقيقية غيري أنا.. لأقبل بنفسي.. لأكن ذاتي" !

كرَّرَها الرجل اللا مرئي على نفسه مرارا، وهو لا يعرف طريقًا يوصله للتعرف إلى مكامن قوته.. لكنه قَرّر أن يكون لا شيء، وكل شيء في آنٍ!

تجاهلَ الجميع، وبدأ يتصرف كأنه الكائن الوحيد على هذا الكوكب!

صدّق أنه لا أحد غيره.. ولا أحد سواه.. ولا أحد يمكنه أن يفعل ما يفعله..

حتى فشله.. هو مميز فيه!

استمد قوته من محاولات الهرب من شَجَنِه.. ظن أنه لم يعد يملك شيئا..

فلم يعد يخشى من خسارة أي شيء.. حتى هي.. لم يتملّكها من البداية ليخسرها في النهاية.. هي لم تكن يوما له!

حتى وإن لم يكن هناك آخر!

أمجد الذي أذاب كل حبال الأمل الواهمة، التي كانت تتمسك بها المرأة المرئية أكثر من اللازم، بتوزيع دعوات حفل زفافه الذي سوف يُعْقَدُ بعد أسبوع!

اهتزّت الأرض من تحت قدمي المرأة المرئية أكثر من اللازم!

انطفأت الشمس، وتبادلت الدور مع الرجل اللا مرئيّ

لأنها كانت تستمد الضوء من الوَهْم!

(٦)

لم تستطع مقاومة سَطوة الحزن، جَلَدَتْها المفاجأة.. والتفَّ حول عنقها ما تبقى من وَهْم

تركت عملَها باحثةً في أرجاء أخرى عن النسيان!

لا يذكر أحد اسمَها.. اختفت سريعا.. وهي مُحْرَجةٌ من التفاصيل.. من قلبها الذي لم تستطع التحكم به؛ فتركها تغرق في غيابات الشجن.

وبينما يُزَفُّ أمجد إلى عروسه.. تمنت لو أنها تختفي.. تَنْصَهِر.. لكنها حتى اللحظة الأخيرة ظلت جامدة.. لا يعرف أحد شيئا عن حطامها.. ولا عن أحزانها!

تماسكت لكي لا تبدي انهزامها أمام الجميع.

حضرت حفل الزفاف، وقد كانت قادرة على الاعتذار بأي عذر لعدم الحضور.. حضرت لتصدق، ولتقطع كل جذور الأمل التي امتدت مع الزمن تحت بيوت الوَهْم!

فلتكن منصِفة.. هو لم يَعِدْها بأي شيء.. لم يعطها ما يكفي للأمل ولا لفقد الأمل!

لكن تحياته الصباحية، و إبداء إعجابه المتواصل بكفاءتها في أداء عملها، وسؤاله الدائم عن والدها المريض.. أخبروها مسبقا بإعجابه المُنْدَسّ في خبايا فؤاده.. هو لا يدركه.. وهي كانت تعيش على أمل وجوده!

لقد كان دورانها حوله يسلّيه.. ويسعده!

وسيبقى سؤالًا مطروحا إلى الأبد، دون أي أثر لبقايا إجابة:

"هل كان وجود أمجد سببًا في أن لا تدرك وجود الرجل اللا مرئي؟!".

سؤال تأخر كثيرا!

ولم يعد في قلبها ما تمنحه لشخص آخر.. على الأقل في الوقت الحالي.

(٧)

لم يعد هناك وقت لمزيد من الحزن!

تخلصْ من أحزانك.. احرقها أو تجاهلها.. أو انشغل عنها.. المهم أن لا تتركها تضيع وجهتك وطريقك!

لا أحد باستطاعته أن يخبرك كل شيء.. عليك أن تكتشف أشياء أخرى بنفسك!

عليك أن تحفر في ذاتك، وتنقّب عن الألماس الباهظ الثمن.. قد تجد فحما في حاجة إلى الوقت لينضج الألماس.

حصل الرجل اللا مرئي أخيرا على اسم.. وقضية.. اسمه عصام، وحقّق تلك الأمنية التي تمناها طويلا، لكنه لم يَصِرْ سعيدا كما توقع!

لم يكن مسرورًا جدا بإعجابهم ولا بثنائهم.

كان إعجابه نابعًا من ذاته تجاه ذاته التي تعرَّفها مؤخرا!

سينشغل في عمله ونجاحه.. سينسى، أو سيدعي أنه نسي وَحْدَتَه، و أيّامه اللا مرئية!

سينسى أنه كان شبحا.. سينشغل كثيرًا.. سينسى جدًّا.. لكن بعض المشاهد التي ستحدث أمامه.. ستثير شَجَنَه وذكرياته!

حضرت اليوم زميلةٌ جديدة في العمل.. تُدعى.. لا أذكر ما كان اسمها.. لنفترض أنها تدعى "المرأة اللا مرئية".

لا أحد يستطيع رؤيتها.. إلا عصام الذي جعل من قضية اللا مرئيِّين قضيته.. ليدلهم على الطريق.. وليمنح لكل الأشباح فرصة لحياة استثنائية!

(٤)

و أنا حضرت.. لأكملك!

يُقال: أن الثعابين تسحر فريستها عن طريق التحديق فيها!
هل هذا ما حدث لي حقا؟! لست أدري.. فأنا بطريقة أو بأخرى مسئولة عما حدث لي!
في ليلة من ليالي الشتاء الماضي، وبينما كنت أظن أنني غارقة في النوم.. أُفشِيَ إليّ سر!
رأيت فيما يرى النائم.. كأنني في غرفة مظلمة.. يتسرَّبُ إليها الضوء من مكان ما.. وأمامي ثعبان لَزِجٌ طويل يُهيَّأُ إليَّ أنه ضعيف الرؤية لم أستطع وقتها أن أتبيّن إن كانت أفعى أم أنه أُفْعُوان.. يتلوَّى دون موسيقى، و أنا خائفة منه..
أحاول الانسحابَ إلى ركن الغرفة.. لكنني جامدة.. لا أستطيع الحراك!
فجأةً يدخل نسر من اللا مكان.. بجسمه القوي، وبأجنحته العريضة، وبأرجله الخشنة المكسوة بالريش.. يحاول مهاجمة الثعبان.. لكنه لا يستطيع الإمساك به!
الثعبان بارع في التلوي والرقص، والنسر قوي جدا.. و أنا في ركن الغرفة مذعورةٌ خائفة، أبحث عن طريقة للخلاص!
وجاءتني النجدة من ذلك الحُلْمِ المُرْعِبِ، فاستيقظت على صوت تنبيه الهاتف المحمول! لأول مرة أكون شاكرةً لجَرْسِ التنبيه.. الذي أنقذني من

قصة الرعب التي كنت جزءًا منها!

كان شعري مُبَعْثَرًا كأكوام القَشّ بعد الحصاد.. ونبض قلبي يسابق الحارقة، التي سقطت شاكرة أنه مجرد حُلم!

أكان مجرد حُلم؟!

لا أظن.. لقد كنت أتذكر تفاصيله جيدًا.. لكن ذاكرتي أضاعت أهم أجزاء الحلم.. النهاية.

ظلت النهاية المفقودة تؤرقني.. هل انتصر النسر؟ هل لدغني الثعبان؟ هل فتح أحدهم الباب و أنقذني؟

لا أذكر أي شيء.. ولا أستطيع تناسي هذا الكابوس!

كنتُ أنظر حولي بعينين مفتوحتين بحثًا عن سكين باردةٍ، تغرز في ظهري في ظلام دامس.

بعد حوالي أسبوع من ذلك الحلم الغامض.. تقدم إلى خِطبتي شابّان ممتازان كما يبدوان للناظر.. تقدم أولا مازنٌ لخِطبتي، ثم بعد حوالي يومين تقدم لي محمد!

وقتها تذكرت ذلك الحلم الغريب.. وربطت مجريات الأحداث به.. ولم يكن لدي سابق معرفة بالمتقدمين!

وكان أهون ما عليّ وقتها أن أنفض يدي من هذه الزيجة على أن أختار ..لكن إصرار العائلة، والرغبة الدفينة لدى كل الأمهات، برؤية ابنتها بفستان أبيض، وبباقة زهر جوري قد تذبل بعد ليالي هناء قصيرة، إذا لم يُقدَّم لها الماء والكثير من الاهتمام!

وتفعل بي الضغوط ما يفعله السحرُ بأحدهم.. فأُجبرتُ على الانصياع لرغبة عائلتي، ومقابلة المتقدمين.. لعلي أجد بينةً أتبع بها حَدْسي.

في بادئ الأمر، شعُرت بالحرج، ولم أكن أملك شيئًا غير الامتثال والطاعة.. وليحدث ما يحدث.. هل كنت أملك الفرار؟ أقصد القرار؟!

لكنني دون أن أشعر، وجدتُ نفسي عالقةً في دهاليزَ غامضة.. أحاول الخروج هاربة.. لكن ما يثقل قدمي.. شيءٌ خفي.. ربما رغبة خفية نحو قدر محتوم لا يمكنني التكهُّن به!

هل كان الزواج بهذا السوء؟!

لا أعتقد.. لكن الخوف من لدغة الثعبان، يُثقل أنفاسي، ويكسو روحي طينا فوق طين.

لم أستطع إخبار أحد عن ذلك الحُلم الغريب.. سيسخرون.. سيقولون: أضغاث أحلام!

وهل الواقع أقل حدّة من الأحلام؟!

كلاهما مُرْهِق.. لكن الحُلم مصيدةٌ مؤقتة.. أما الواقع فمتاهةٌ كبيرة.. إن نجوتَ من الغرق ستموت برصاص الاحتلال.. أو ربما يمزِّقك قطار.. أو تنفجر منسيًّا على أريكتك التي قضيت عليها معظم حياتك تنتظر وزارة القوى العاملة ليتم تعيينك في وظيفة ما.. أو أن يموت أحد أقاربك ميسوري الحال؛ فترث تلفازا.. أو مكواة.. أو ربما أرملة عمّك الذي لم يُنجب.. فتدخل بعد معرفتك عن طريق الخطأ بموتها على فراش المرض.. فتتقاسم أنت، الضيف غير المرحب بك و أبناء عمك ذكرياتِها وأحلامها.

تتساءل بحدّة: "أين الخاتم الفضي الذي كانت ترتديه منذ برهة ..من أخذه منكم؟".

فيصرخ في وجهك أحدهم: "ألأنك جئت زيارتين، وأحضرتَ كيلو من البرتقال.. تريد أن تتقاسم معنا كل شيء.. ونحن الذين حملناها على قلوبنا ألف مرة إلى المشفى؟!

اخرج يا هذا".

فتخرج مُطَأْطَأَ الرأس.. تلعنهم بصوتك المختبئ خوفا من أن تسمعكم رُوْحُ السيدة التي قضت حياتها في ذلة، بعدما تركها زوجها وحدها تجابه كل هذا النفاق!

لماذا كل هذا الدراما، وهذه الأفكار التي تدور حانقة في ذهني؟!

ما هذه الفلسفات الغريبة التي فتحتُ لها الباب.. أليس مجرد زواج؟!

وماذا عن ذلك الحُلم.. أليس مجرد حُلم؟.. أتمنى!

لم تحمل لي مقابلتي بمحمد شاهين، من الأمل بقدر ما حملته لي من خيبة الأمل!

كان شخصا باهتا.. لم أَرَ مستقبلا في عينيه.. لا يحب السفر ولا يطمح بالمزيد.. ولا يفكر في المستقبل.

إنه آمنٌ داخل حدودٍ خطَّها بنفسه.. لا يحب الاختلاط، وغير مسموح لأي أحد بالاقتراب.

مقابلة لا تترك ذكرى.. غير الملل، وعدم الرغبة في فعل شيء، غير الهروب بعيدا من هنا!

لكنها المقابلة الأولى والأخيرة.. فلم أكن راغبة بترك شيء عالقٍ للزمن.

سننهي مشروبنا الساخن.. سنبتسم.. سيحيّي بعضنا بعضًا.. ثم فَلْيَنْسَ كلٌّ منا كلَّ هذا الحرج!

قلبتُ عيني في وجهَيْ والدايّ.. تبادلنا نظرات الحزن بالخيبة!

لم يكونا سعيدين.. وربما كانا يشعران بتأنيب الضمير، تجاه إرغامي بشيء لم أكن أرغب به..

لم يسمح لي محمد شاهين، بإسدال كلمة النهاية، ولا باستخدام الكلمات التي تدرَّبتُ على قولها لوالدتي إذا ما سألتني بشأن مقابلة أخرى معه!

كنت ربما سأقول: "إنه يستحق من هي أفضل مني".. أو: "لم أشعر بالارتياح".. أو على الأرجح: "إننا لا نشبه بعضا". فقد اعتذر عن مشروع الخطبة الآثم.. وأحلّني من عقدة الشعور بالذنب، تجاه تحطيم آماله، التي كان يعلم أنها لن تنمو أبدا، في هذا المكان غير الآمن!

كان شعورا متبادلا، نسيته سريعا، ونسيت أن أرفض معه مقابلة مازن.. التي أصبحت أنا الأخرى حريصة عليها.. لا لشيء أكثر مما حطّمه رفض محمد شاهين، وهو يقوم بمغادره مكانه، لقد حطّم كبريائي!

كان كل الشيء كالخيال.. كأننا التقينا مسبَقا في مكان ما.. كأنني فجأة أصبحتُ أميرة من أميرات القصص الخيالية... أطير بأجنحة خر افية، و أبتسم ابتسامة بلهاءَ لا تكاد تفارقني.

نعم.. أحببته.. كما لو كان قصتي وقضيتي وجل أحلامي.

تقول عائلتي أنني جُنِنْتُ.. نعم، جُنِنْتُ، وتبعثرت أوراقي!

رجل من الأعيان، وسمعته لا غبار عليها.. ماذا أريد أكثر من ذلك؟!

انهارتْ مخاوفي أمام حضوره.. فسَّرت حلمي أن الثعبان يرمز إلى شاهين.. بحُجة أن الثعبان طويل، وشاهين أطول من مازن!

انهارت مخاوفي أمام حضوره.. إلا خوفي الشديد من أن يختفي كل شيء.. أن يذهب السحر.. وتتحول إلى كل آمالي إلى تراب.

لكن مازنا.. كان سعيدا بقصتنا.. أذكر أنه قال لي ذات مرة:

"أتعرفين قصيدة درويش.. الآن في المنفى.. حين اختتمها:

قُلْ للغياب: نَقَصتني

و أنا حضرتُ... لأُكملَكْ!

أشعر لو أن درويش قد كتبها لأجلنا".

من وقتها و أنا أعلّق على قلبي.. "و أنا حضرت لأكملك"!

لا داعي لإطالة الخِطبة.. هذا ما طلبه من أسرتينا، وما قمت بالتصديق عليه.

ومرّت الأيام، ونسيت مخاوفي.. وكنت أنتوي أن أصنع له مفاجأة في عيد زواجنا الأول.. فطلبت من أخته أن تحضر لي مجلد صوره القديمة؛ لأصنع له فيديو أجمّع له فيها ذكرياته السعيدة.

قلبت عينيّ بين الصور.. سقط نظري على صورة أوقفتْ نبض قلبي.

إنه هو... نفس الثعبان الذي في الحلم.. كان الثعبان يلتف حول رقبة مازن.. ليس هذا هو المخيف في الأمر.. المرعب أنه نفس الثعبان الذي رأيته في ذلك الكابوس!

عادت إليّ الذكرى.. تذكرتُ أن شاهين يعني النسر.
حاولتُ إعادة التفسير.. مازن ظهر قبل شاهين.. والثعبان ظهر قبل النسر..
لقد تزوجتُ الثعبان.. تجمد قلبي.. لقد أخطأت!
لكن مازنًا لم يؤذِني خلال السنة الماضية!
تذكرت.. لقد اختفى عِقدي الماسي بعد زواجنا مباشرة.. وقد اتهم الخادمة وقتها بسرقته، وقام بالاكتفاء بطردها دون أن يقوم بإبلاغ الشرطة.
نفس العِقد، بعد خمسة أشهر، وجدته يزين رقبة المغنية الناشئة مايا!

بعد أشهر قليلة.. اشتكى من ضعف السيولة في السوق.. فأعطيته وبدون تفكير رصيدي البنكي الكبير!
هناك الكثير والغريب.. يكفي، لا أريد أن أتذكّر!
"و أنا حضرتُ لأحرقك!"
لا أفهم.. ولم أفهم.. إنه من الأعيان.. هل أفلس؟!
ضاقت بي أنفاسي.. وعصف بي دِوارٌ، لا أعرف من أين ابتدأ، ولا كيف انتهى.. غير أني غرقت في النوم.. لكنني هذه المرة حلُمت بنفس الكابوس الذي رأيته العام الماضي!

رأيت فيما يرى النائم.. كأنني في غرفة مظلمة.. يتسرب إليها الضوء من مكان ما.. وأمامي ثعبان لَزِجٌ طويل يُهيأُ إلي أنه ضعيف الرؤية، لم أستطع وقتها أن أتبيّن إن كانت أفعى أم أنه أُفْعُوَان.. يتلوّى دون موسيقى و أنا خائفة منه.. أحاول الانسحاب إلى ركن الغرفة لكنني جامدة.. لا أستطيع الحراك!
فجأة يدخل نسر من اللامكان.. بجسمه القوي، وبأجنحته العريضة، وبأرجله

الخشنة المكسوة بالريش.. يحاول مهاجمة الثعبان.. لكنه لا يستطيع الإمساك به!

الثعبان بارعٍ في التلوي، والرقص والنسر قوي جدا.. و أنا في ركن الغرفة مذعورة خائفة.. أبحث عن طريقة للخلاص.. فجأةً يختفي النسر.. ويقترب مني الثعبان.. يزحف نحوي.. و أنا لا أستطيع الحراك.. هل أصاب قدمي الشلل؟! أنظر إليهما.. لم أجد ساقيّ.. وجدتهما وقد استحالا ذيلَ ثعبان لَزِج.. يزحف نحوي الثعبان.. أشعر بتنميلٍ في جسدي.. أنظر إليه و أنا أفقد بشرتي الناعمة، وأُغَطَّى بجلد لَزِج!

استيقظتُ فَزِعة.. هل سأصبح حقا أفعى؟!

يدخل مازن المنزل على صُراخي.. يجدني في حالة يُرثَى لها.. مُبَلَّلةَ الثياب.. واجِمةَ الوجه.. كما لو أنني شاهدت كابوسا توًّا!

يطمئنني.. لا تقلقي.. هل شاهدتِ كابوسا؟!

أهزّرأسي نافية.. أهمس: لقد شاهدتِ حقيقة!

لعلك تشعرين بي يا عزيزتي.. لقد حدثت لي مصيبة.. لقد هَرَبَ شريكي بالشركة، برأس المال والأرباح!

لقد أفلستُ، ولا يوجد لدي حلّ.. سوى أن أستدين من أحدهم مبلغًا من المال، وسأرده له بعد وقت قصير؟!

هل تعرفين أحدًا يمكنني الاستدانة منه؟

أهزرأسي نافية!

- لا.. ماذا عن أسهمك في شركة والدك؟!

أهزّرأسي نافية!

يسألني: أنت بخير؟!

أفكرفي الكابوس.. ليست هذه النهاية.. هناك بقية في القصة.. كيف سأتحول ثعبانا؟!

هل سيحرقني.. سيتركني أعاني سمَّه.. و أبكي عليه سنوات ستغيرني كثيرا.. هل سأصبح حقا أفعى؟!

ينظر إليّ.. يحاول التحايل عليّ بتهديده الكاذب: "سوف أقتل نفسي.. لا يمكنني أن أعيش فقيرا".

أهزرأسي نافية.. أضيع في الضباب.. وهو يتابع كذبته الجديدة.. و أنا حتما سأصدقه؛ لكي لا أخسره.. إلى أن أخسركل شيء.. و أتحول دون أن أشعرإلى عكس ما أريده.. صدقني نحن نتقمص شخصيات اللذين أَذَوْنا؛ فنؤذي أبرياء لا ذنب لهم؛ لأننا لم نتمكن من أخذ حقنا من الذين أَذَوْنا.. ولكي لا يفتضح عجزنا أمام أنفسنا!

(٥)

باقة ورد ممزّقة!

(١)

لو سقطتَ من على حافة جبل.. قد تموت أو لا تموت!

لكن المؤكد أنك لو سقطتَ من قلبي؛ فإنك لن تحيا مجددا!

قالت ذلك، وهي تنظر بقوة في عينَيْ محدثها.. وكأنها تقول له:

أرجوك، صدقني.. ما أقوله لك ليس له علاقة بالحقيقة.. أقصد بل هي الحقيقة.

يُهديها باقة ورد ممزقة!

تتعجب.. تسأله: ماذا تقصد؟

- هل تستطيعين إعادة ترتيبها؟

تتعجب أكثر.

- يستحيل.

يبتسم ابتسامة ماكرة ويذهب.. تاركا خلفه كل شيء!

تصاب بالذهول؛ لأنها لم تفهم أي شيء!

(٢)

تجلس وحيدة في متجر بيع الزهور، الذي ابتاعته مؤخرا.. ذلك المتجر المتصل بحديقة داخلية، مليئة بزهور مميزة لا مثيل لها!

وككل عام في نفس التوقيت، تتذكر كل شيء.. وبينما هي تعدُّ باقة ورد استثنائية.. تتذكر عندما أهداها باقة الورد الممزقة.. وكيف أنها خرجت مسرعة خلفه!

- انتظر.. لم أفهم أي شيء.

- ألم تخبرك الورود، بما حدث لنا، في طريق مجيئنا إليك؟!

ابتعت هذه الورود بكل حب، وبما كان في جيبي من نقود.. واضطررت للسير على قدمي لأوصلها إليك.. كنت منشغلا بك.. عن كل شيء حتى عن الطريق.. لم ألاحظ تلك السيارة المسرعة التي صدمتني، وهربت مسرعة، بعدما قامت بإهانة باقة الورد تحت عجلاتها.

قمت سريعا ولَمْلَمْتُ ما تبعثر منا!

لأصل إليك.. وعندما وقفت بين يديك.. أخبرتني أنني على مشارف السقوط من قلبك!

- جيد أنك بخير.. وثيابك نظيفة.

يرتبك.. يبتسم.. يضع يده على مؤخرة رأسه.

- لكنني لم أكذب.

- أنا لم أقل لك أنك تمارس هوايتك في الكذب.. لكن قصتك مبالغ فيها بعض الشيء.

يضحك!

- حسنًا.. ما يهم الآن أنني لا أزال أسكن هنا.. في قلبك!

- ماذا عن محاولة إعادة ترتيبها؟!

- ضعيها في كوب ماء، وأضيفي نصف ملعقة من السكر.

يضحك بصوت عالٍ.. سأمر مساءً لأكمل حديثي مع والدك بشأن ترتيبات الزفاف.

تعود هي إلى الداخل.. وتحضر كوب ماء، وتضيف نصف ملعقة من السكر.. تقوم بإعادة ترتيب الورود.. تسقط بطاقة مختبئة بين الورود..تنحني لتلتقط البطاقة.

(البقاء والدوام لله.. تقبلوا أحرّ التعازي لفقيدكم المغفور له بإذن الله عادل سامي)!

تصرخ بصوت عالٍ: الأحمق سرق لي باقة الزهور من مقبرة!

يعيدها إلى الحاضر صوتُ طفل صغير.. يحمل باقة ورد ممزقة:

أمي.. والدي يقول لك: كل عام و أنت بخير!

تبتسم:

وهل قمتُما بسرقتها لأجلي من مقبرة؟!

يجيبها الصغير:

لا.. لقد تسللنا ليلة أمس إلى حديقتك، وقطفنا من أجلك بعض الزهور.

ثم تصرخ صرخة مُدَوِّيةً.. كعادتها كل سنة!

(٦)

بكاءُ الصيفِ الحزينِ!

كانت لِطْمَةً قوية أعادتني إلى الذكرى..تَلَتْ عليّ الذكرياتِ جميعَها.. صورة، صورة، وفاجعة، فاجعة.. ذكّرتني بكل الحزن القابع في روحي.. فتكالب عليَّ، وهجم هِجْمَةَ غدرٍ في لحظة ضعف.. إنه أميٌّ لا يعرف ملامح النفاق التي تتوارى خلف أقنعة الكثرة والغلَبة!

كانت ليلة ثقيلة.. من السيّئ فيها أنني كنت وحيدة جدًّا.. ملتفّة حول نفسي.. عاجزة عن مواساتها.. عاجزة عن احتضان أشو اقها وآلامها.

فتحت باب الشقاء على نفسي، وألهمت الشر أن ينال مني.

في تلك الليلة القاسية..التهمت النيران بجرأتها على مرأى من الجميع أعصابي.. أثارت الشغب في الأرض المحتلة، وأحرقت السجين.. حتى تحرّر بالموت من ذُلِّ الذنب، ووعورة الضمير!

لم أحب أن يموت.. أردتُه أن يدفع الثمن أضعافًا.. أن يبكي الحُرْقَة كما بكيتها عَلْقَمًا!

أن يتناهى إلى ذِرْوة الموت.. فيلفِظَ الأنفاس المريرة الأخيرة مرارا وتكرارا! حتى يتمنى الموت في كل لحظة!

خطيئته الأخيرة الموت قبل التئام جراحي.. قبل أن أقتصّ منه الألم الذي عانيته، والنقص الذي ملأ قلبي.

كان زوجًا مثاليًّا.. من الخارج.. تتمناه كل النساء رفيقًا، وكل الصبية صديقًا!

حتى أنا كنت أغار على نفسي أحيانًا.. أغار عليها حين تتملكه.. حين فلذة كبدي "عمر" الوسيم!

كان نابغةً في كل شيء.. فاق أقرانه وتفوق في كل شيء.. كنت أحبه.. لا، لا أزالُ أحبه.. أعشق رائحته.. أتمنى أن يجري نحوي ويحتضن حزني.. يمسح عني غبار شوق السنوات التي أصابها العطب.

قبل سنوات أحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب.. سنوات مصبوغة بالأبيض، والأسود خالية من كل ألوان الحياة.

كل الأيام بالنسبة إلي يوم أربعاء ممطر.. أمطرت السماء على غير العادة في فصل صيف حزين.. أمطرت دموعًا تكفي أحزان العالم كله.. إلا أنها عند حزني أقصرت يدها عني.

انعدمت الرؤية من خلال زجاج السيارة.. وتَرَنَّحَتْ كأنها تعاني من أثر الثُّمالة.. تحطمت حياتنا تحت عجلات السيارة.. وصارت أيامنا السعيدة ماضيًا لا يمكنه العودة.. انتهينا خلف مِقْوَدِ سيارة..

زوجي المتهوّر.. أصرَّ أن يتابع السير رغم الصعوبة!

أخفُّنا في الضرر كان جسدي، وأكثرنا ألما كان قلبي!

والمسكين عُمر.. يرقد على سرير الألم طوال عمره.. فاتته الحياة بتفاصيلها.. مرَّتْ السنوات بمحاذاته، دون أن تترك له ذكرى سوى العجز.. والجهل!

نائمٌ.. أقلّبه بين الفينة والفينة، خوفا من قَرْحِ الفراش.. أُطعمه بيدي دون إشارات منه للجوع أو الشبع، وأسقيه كلما شعُرت بالعطش.. أَقُصُّ عليه الحياة، و أنا أعلم أنه لا يسمع صوتي.. ولا يشعر بي!

وزوجي السجين في كرسي العَجْز.. أسكنتُه بجفاء في غرفة الحارس بعيدًا عن كل من سبَّبَ لهم الألم!

كل يوم أسوقه، رغمًا عنه إلى غرفة عُمر.. أذكّره بجريمته الكبرى، وألومه!

حتى نفذ صبره، وأشعل النيران لتلتهم كل شيء، ولتنتهي قصة لومه عن خطئه المتعمَّد الذي كشفته لنا شركة التأمين.. خطة زوجي اللئيمة.. ليأخذ نقود التأمين ويسدّد بها دينه.. لكن السحر انقلب على الساحر!

(٧)
صاحبة الفستان الأزرق!

"إنها تناسبك جدا يا ولدي.. لقد رأيتها صباحا ترتدي فستانا أزرق.. إذا ما رأيت صاحبة الفستان الأزرق؛ فاعلم أنها المنشودة.. بارك الله فيك يا ولدي، ومباركة عليك..".

طوال الطريق إلى عمله.. يلتفت يمينًا ويسارًا بحثا عن إجابة اللغز.. يلتقيها كل يوم.. من تكون؟!

يقلّب وجهه في كل اتجاه.. أخيرا وجد فستانا أزرقَ لفتاة يزعم أنه يعرفها جيدا..إنها "قمر" السكرتيرة الجميلة في شركتهم!

حاول اللحاق بها.. وقبل أن يصل.. وعلى مقربة منها.. كانت هناك طفلة صغيرة.. بدلا من أن تلعب مع بنات الحارة.. تبيع المناديل في الطريق للمارة.. قالت الطفلة الصغيرة: "سيدتي، من فضلك، اشتري عُلبة مناديل".

لم تهتم قمر.. حاولت الطفلة الصغيرة اللحاق بها.. أمسكت بفستانها الأزرق!

علا صوت قمر: "أيتها الحمقاء، أفسدتِ فستاني الأزرق الجميل". تعجب صاحبنا من أمه.. كيف اختارت له "قمر".. إنها لا تشبهه! جلست الطفلة تبكي في منتصف الطريق.. اقتربت منها فتاةٌ جميلة ترتدي

فستانا ورديَّ اللون، إنه يعرفها وتعرفه.. أميرة ابنة العم أيوب.. جلست على ركبتيها.. همست للفتاة الصغيرة!

- لماذا تبكين يا صغيرة؟!

- لم أقصد تلويث فستانها.. كنت أريد منها أن تشتري عُلبة مناديل!

- لا تحزني، سوف أشتريها منك.

- شكرا يا سيدتي.. أنت جميلة جدا.. هناك جُرح في قدمك.

- لا تقلقي يا صغيرة.

لقد خرجتُ اليوم صباحًا بفستان أزرق أنيق.. و أثناء توجهي للشارع الرئيسي تعثرتُ بإحدى حجارة الطريق.. سقطتُ.. وجُرحت قدمي بجُرح بسيط.. لكنني وقفت سريعا على قدمي، وعدت إلى منزلي.. وبدلت فستاني الأزرق، ولم تسقط دمعة واحدة من عيني.

إياك أن تسقط دموعك لأجل شيء يمكنك تغييره!

(٨)

حب مع كثير من الدَّسَم!

ولأنني لا أعرف شيئا عن الجزء المظلم من حياتك.. اقتادتني الشكوكُ والظنون في طريق شائك.. أنفي الأنثوي الشديد الحساسية لأشياء أخرى غير الضوء، يرجح لي وجود أخرى لا يمكن أن تتواجد إلا في أحلامك.. ولأنني شديدة الغَيْرة.. ولأنك أصبحت تثير حولك الكثير من علامات الاستفهام.. لم أستطع التوقف عن مجرد المراقبة في صمت.. أصبحت يداي تتحركان رغمًا عني في دفاترك القديمة بحثًا عن دليل واضح و صريح.. بتورطك في مصيبة تُعدُّ لي دون قصد.. فأتناولها مع كثير من توابل الخيبة والحزن. كانت دفاترك بيضاء كنابِ فيلٍ قُتل غدرا ليظفر الصياد بهديته!

شرودك على مائدة الغذاء.. يثير حَنَقي.. فأتناول الطعام بإفراط وتفريط.. أعلم أن صوت ارتطام أسناني بالملعقة يثير اشمئزازك.. لذلك فأنا أستمتع بقرع طبول غضبك..

لكن صمتك.. والإصرار على شرودك؛ جعلني أعلن الحرب، وليسقط من أشاء من الضحايا.. أولها.. أنت!

أسأله: من تلك؟

فيجيبني: أيّ تلك؟

- التي تهرُب بها من واقعي الذي لا يعجبك!

-لا يوجد أحد.. ولا فائدة من الهروب منك.

- إذن.. أقسم لي.

- هل سيتغير شيء.. إذا عرفت من تكون؟!

- أقسم أنني سأترككما وشأنكما.

- لقد كنت شاردًا في شخصكِ القديم.. وشخصيتِك الر ائعة.. كنت تأكلين بهدوء.. تبتسمين كثيرا.. تعجبك نكاتي السخيفة.

تخفّفين عني أعباء الحياة.. أما الآن فقد تحولتِ تدريجيًّا إلى أخرى لا أعرفها.. هل ستذهبين حقا وتتركينا وشأننا؟

- لا، لقد كنت أمزح.

أكمل وجبة الغذاء الدسمة.. يحاول الشرود مجددًا للهرب من صوت ارتطام الملعقة بأسناني.. لكنه لا يفلح!

أحاول التفكير مجددا في حديثه.. أنظر إليه.. صلعته العجيبة.. وزيادة وزنه المريبة.. أتذكر فُتات الطعام الذي يتركه خلفه على الأريكة.. يؤلمني ظهري.. إنني أنظف منزلنا أكثر من عشر مرات يوميا.. أتذكّر نسيانه هديةَ عيد مولدي.. وآخر مرة وعدني بها بالتنزّه خارجًا، لكنه ككل مرة.. يشعلني حزنا ويحرقني انتظارا.. وفي كل صباح، حين أفتح عيني أتذكر وجوده فأحمد الله على نعمته!

سألني: لماذا كل هذا الشرود؟

فأجبته: ماذا تريد أن تتناول غدا على الغذاء؟

- معكرونة بالباشميل مع كثير من الدسم.

أضحك.

تَبًّا لذكريات الخطوبة.. لقد كانت مجرد مشاهد من فيلم خيالي!

(٩)

الطفل الذي قطف الزهور!

إلى الطفل الذي قطف الزهور اليوم.. لقد رأيتك.. سأخبر والدتَك.. ستنام الليلة دون عشاء!

إلا إذا...

نعم.. إلا إذا تسلّقت الشجرة المجاورة لمنزلكم.. وأخذت عُشَّ العصافير المليء بالبيض الصغير وضربتَه إلى صخرة قاسية.. وتركتَ المُحَّ يسيل منه أمام والدتهم المفجوعة!

إلى الطفل الذي قطف الزهور.. وتسلق الشجرة المجاورة لمنزله وحطَّم بيض العصافير أمام العصفورة الأم.. لقد رأيتك.. وسأخبر والدتك.. وستنام الليلة دون عشاء!

إلا إذا...

أحضرت لي قلادة والدتك الذهبية ولففْتها بقطعة قماش سوداء، وتركتَها بجوار البئر الغربي!

إلى الطفل الذي قطف الزهور.. وتسلّق الشجرة وحطم بيض العصافير.. وسرق قلادة والدته.. لقد رأيتك.. سأخبر والدتك.. ستنام الليلة دون عشاء!

إلا إذا...

إلى الطفل الذي...

إلا إذا...

إلى الطفل الذي...

إلا إذا...

قتلت والدتك!

إلى الطفل الذي قطف الزهور، وحطم بيض العصافير.. وسرق قلادة والدته.. وقتل والدته.

شكرا جزيلا لك.. الآن أشعر بالراحة!

ثم نهرُب للخيال..

ربما كان في الخيال مَنْفَذ!

(١)

ربطة عنق جديدة!

(١)

في كل ليلة تتحول جارتنا العجوز إلى شابة جميلة.. تماما عند الغروب تتمزّق بشرتها المليئة بالتفاصيل والتجاعيد، لتخرج لنا بشرة شابة نضرة.. بخدَّيْن ممتلئين وعينين زرقاوين.. تضيئان لها الطريق نحو بحيرة البَجَع.

تجلس على أحد المقاعد الزرقاء بجوار تمثال تعرفه ويعرفها.. يبعد مسافة خمسة عشر قدما من الضفة.

- كيف حالك يا أميري العزيز؟

تمسح بكفيها الرقيقين بعض القطرات الموجودة على وجه التمثال.

- أهو المطر.. أم هي دموعك يا عزيزي؟!

تتذوق القطرات!

- مالحة جدا.. لا تبكِ يا أميري.. إنها خطيئتي أنا.. وذنبي أنا.. أتمنى أن لو تعود حياتنا كما السابق بعيوبها ونقائصها ونقائضها.. أريد أن نعود كما كنا.

اعذرني، كان صوت البطون الخاوية مرهقًا.. كنت أفكر كثيرا في الغد.. كنت خائفة من المستقبل.. لم أكن أثق بالحاضر.. كان يجب أن أصدّق أحلامك.. أن أطمئن لكوننا معا.. إن مِتنا جُوعا.. فنحن معا.. وإن عشنا

فنحن سويًّا.. أرهقتك حياتنا الصعبة، وأحلامي الباهظة الثمن.. كلفتُك فوق ما تُطيق.. اعذرني لقد قسوتُ عليك في تلك الليلة.. كنتُ غاضبة جدًّا.. غاضبةً لعجزك وقلة حيلتك.. أو ربما كنت غاضبة من نفسي، وعجزي وقلة حيلتي، فأخذت أَصُبُّ عليك جامَ غضبي!

قسوت عليك.. قمت بتهديدك: "*إن لم تحضر لي لبنَ العصفور، فلا تعد"!*

دخلتَ الحديقة المسحورة.. بكيتَ عجزًا وقهرًا وذلًّا.. وحبًّا!

- لبن العصفور!

جلستَ على المقعد الأزرق الخشبي الذي يبعد عن الضفة خمسة عشر قدما مهمومًا.. وقتها وقف على كتفك عصفورٌ صغير يحاول مواساتك.. تذكرت طلبي الأحمق.. حديقة مسحورة.. *لا بد أن أمسك بهذا العصفور وأهديه لزوجتي ولتفعل به ما تشاء.. تأكله نيئًا أو تقوم بشوائه..* المهم أن تفتح لي الباب، وتسمح بعودتي إلى المنزل والمبيت في فراشي الدافئ.

أمسكتَ العصفور بين يديك.. حاولت خنقه.. عندها حلَّ عليك الغضب، وتحولت إلى حجر!

هل تمنحني الغفران لتعود إلى هيئتك البشرية ولنحظى بفرصة ثانية؟!

أقسم أنني تعلمت.. لم أعد أخشى الفقر.. ولا الجوع.. لم أعد أخشى شيئا

سامحني يا أميري!

لو أستطيع أن أتحوّل مثلك إلى تمثال و أبقى بجوارك.. لكن عقابي أن أفقد شبابي.. مع شروق كل شمس.. الشمس على وشك الشروق.. سامحني يا أميري!

تزيل ربطة العنق التي وضعتها الليلة البارحة على عنق التمثال.. وتضع ربطة عنق أخرى جديدة.

نعم.. لم أَنْسَ، إنه عيد زواجنا الخامس والعشرين.. كل عام وأنت بخير يا أميري!

(٢)

كنت أتمنى أن تظهر الجنيّة في قصتنا، وتضرب بعصاها السحرية تمثالك فتعود كما كنت سابقا بشريا.. ونعود كما كنا سابقا قبل خمس وعشرين سنة.. لكن زلزالًا قويًّا.. جعل الأرض تهتز من تحت أقدامنا.. زلزالًا لا يشبه ذلك الزلزال الذي ضرب حياتنا!

آسفةٌ يا عزيزي.. كانت الحياة مرهقةً لدرجة أنها جعلتني أجحدُ قيمة الأشياء التي كانت بين يدي.. كان لدي بيت.. وكان لدي أنت.. كان لدي أنت.

ألم تكن أنت تكفيني؟ كنت كثيرًا عليّ.. كثيرًا جدا!

كانت ليلة من ليالي أمشير.. لطالما كان أمشير يخيفني.. ما أن يبدأ الشهر، يدقّ قلبي دقات غير منتظمة!

أخاف أمشير.. أخاف زَمْهَرِيْرَهُ.. وقسوته.. لم يتلطّف بي حين مات جنيني.. ولم يعتذر حين سرقك مني.

لا تقل لي أن أمشير بريء من ذنبك.. أليس بَرْدُهُ المسئولَ بطريقة أو بأخرى في رغبتك بالعودة سريعا إلى المنزل؛ لذلك خنقت العصفور؟!

أسمعك تجادل.. نعم، أنا أرمي ذنبي وخطيئتي على أمشير.

ما ذنب أمشير؟

وما ذنبنا في الخوف والجوع والقلق؟

لماذا لم أستطع أن أثق في المجهول؟

لماذا وقعت أسيرةً لأشياء لم تكن موجودة بالفعل؟

اهتزت الأرض.. واهتز كل شيء.. كنت وقتها أزيل ربطة العنق التي وضعتها لك ليلة البارحة لأستبدلها بأخرى جديدة.. الأرض تهتز تترنّح.. أستند إليك.. تتشقّق.. تسقط يدك. تتمايل.. و أتمايل.. يسقط تمثالك.. ينهار وأنهار.. يتفتّت و أتفتّت.. أسقط على بقايا أملي في الحياة.. أسقط على الأحجار.. تختفي.. أبكي.. أين اختفيت؟!

"لم يعد لديّ أنت"!

توقف الزلزال.. أمسك التراب بين يدي.. أبكيك.. تختلط دموعي بترابك.

أنظر حولي في الحديقة المسحورة.. لم يسقط غيرك.. لم يَنْهَرْ سواك.. لم يَخْتَفِ أحد غيرك!

أحاول جمع ترابك.. أحاول إعادة تمثالك.

لا شيء يعود.. أُفيق من صدمتي!

لقد انتهى كل شيء!

تشرق الشمس.. ودموعي لا يوقفها شيء.. أيقنت أنني سأبكيك إلى الأبد!

أجمع بقايا ترابك.. أنثرك في بحيرة البَجَع.. أغسل يدي.. تعكس المياة صورتي على صفحتها.. فاجأتني الصورة.. لم أعد امرأة عجوزا.. ولا أنا شابة.. امرأة أربعينية، لا تزال تحتفظ ببقايا جمالها!

أبحث عنك.. هل زال عنا الغضب؟

الحديقة المسحورة خالية من بقاياك!

لم يَعُدْ لدي أمل.. وقد كنت على وشك أن أصدّق أنك ستناديني من أي جهة فأنظر إليك.. وتنظر إلي وتنتهي كل أحزاننا.. لكنك لم تَعُدْ.

عدتُ إلى منزلنا.. أَجُرُّ أحزاني.. حزنا حزنا.. وأحمل بين يدي حزنًا جديدًا وُلد منذ قليل.. لقد فقدتُك بالفعل.. فقدتُ ما كان يبقيني على قيد الأمل.

جلستُ على أريكة القهر.. سمعت صوتَك قادمًا من جهة المطبخ.. ألم تُعِدِّي بعد طعام الإفطار؟.. إنني جائع، كأنني لم أتناول طعامًا منذ خمس وعشرين سنة!

تفرك عينيك.. أنظر إليك و أتعجب!

هل عدتَ حقا؟!

اختلط شعرك الأسود بالشيب.. وارتسمت على وجهك بعض التجاعيد.. التي زادتك وقارًا.

- هل أنت حقيقي؟

- أين الطعام؟

إنه جائع جدا كعادته.. بالتأكيد هو حقيقي!

هل يذكر أي شيء؟

على ما يبدو.. إنه لا يذكر أي شيء.. سكن قلبي.. جيد أنه لا يذكر أي شيء، وإلا لما عاد إليّ!

- ماذا تريد أن تأكل؟

- أي شيء غير لبن العصفور!

لبن العصفور.. اشتعل وجهي خجلًا!

ثم أردف كلامه: بالمناسبة، لماذا أنفقتِ مالنا في شراء كل هذه الربطات الأنيقة؟!

- إذن أنت تذكر كل شيء.

- علينا أن ننسى كل شيء.

(٢)

لا تغادري سريرَك!

"لا تغادري سريرك طوال الليل.. هناك شبحٌ ينام في أرضية الغرفة.. إن قمت بإيقاظه.. سوف يقوم بقتلنا جميعًا"!

سمعتْ جوري البالغة من العمر خمس سنوات تهديد مربّيتها حورية.. وجلست ترتجف رعبا داخل سريرها.. أيها الشبح.. هل تسمح لي بالعبور؟ أريد الذهاب إلى الحمام.. إن بللتُ ثيابي؛ ستغضب مربّيتي حورية، وربما تقوم بحرماني من الكعك المحلَّى الذي اشتهيه.

أيها الشبح.. والدتي تعمل لساعات طويلة.. لأجلي أنا.. تريد أن أتعلم بشكل جيد.. تريد تعليمي الإتيكيت، والسباحة، والرسم.. تخيّل.. أستطيع مناداتك بالفرنسية:

S'il vous plaît, O Esprit

أرجوك أيها الشبح.. والدي مسافر منذ وقت طويل.. وهو يعمل لوقت طويل.. يحادثني عبر الإنترنت كل مدة.. ويبعث إليّ بالهدايا الكثيرة.. أترى هذه الدمية؟.. إنها هدية والدي في عيد مولدي الخامس.. لقد أخبرني والدي أن ثمن هذه الدمية يتجاوز راتب مربيتي حورية.. و أنا حزينة لذلك.. حورية المسكينة لديها سبعة أبناء.. إنها تضع لي المنوِّم في اللبن الطازج الذي تسقيني

إياه كل مساء.. الليلة احْتَلْتُ عليها؛ ولم أشرب اللبن!

إنها تريدني أن أنام لتتسلّل خارجا.. لكي تهتم قليلا بأبنائها الصغار.. إنها محتويات ثلاجاتنا وتضعها في كيس أسود.. لتطعم بها صغارها.. أتذكّر أني سألتها مرة: "ما الذي في الكيس الذي بين يديك يا طنط حورية؟".

فأجابتني: "إنها قمامة".

ادعيت أنني أصدقها.. لكي لا أسمع قصة أبنائها السبعة.. ولا كيف أن زوجَها لديه إعاقة تمنعه من العمل، ولا قصة ابنتها، ذات الخمسة عشر عاما التي تأخرت عن الزواج بسبب أنها إلى الآن لم تجمع مبلغ تجهيزات الزواج الميمون.. لا أشعر بالنعاس يا شبح.. لكنني قَلِقَةٌ بشأن ما سيحدث لي إن بلّلتُ ثيابي!

أنا أنتظر بشدة أن تعود أمي إلى المنزل، وتحملني دون أن أوقظك، وأذهب لقضاء حاجتي.

اهدأ يا شَبَح.. أسمع صوت أقدام.. تشبه أقدام طنط حورية.

تدخل حورية.. لا تشعل الضوء.

- هل نمت يا جوري؟ -

طنط حورية، احمليني.. أريد الذهاب إلى الحمام.

- نامي يا جوري.. افعليها في الصبح.

تخرج حورية..

لماذا تتأخر أمي كل يوم؟

أسمع أصوات أقدام.. تدخل امرأة غريبة.. أصبحتُ أراها كثيرا في منزلنا ربما

هي مساعدة أمي..

تقترب من سريري.. تهمس برقة:

استيقظي يا حنان.. حان وقت ذهابك إلى الحمام.. حتى لا تبلّلي ثيابك!

أين حنان.. التي تحدثها كل يوم؟

أنظر حولي.. لا أجد إلا الدمية التي أهداها لي والدي.. تستيقظ الدمية..

تمسك بيد والدتها.. تتركني خلفها في الغرفة.

أسمعها تهمس لأمها.. أمي، أرجوك، لا أريد النوم في هذه الغرفة!

تقول لها والدتها: "أنت لست خائفة يا حنان.. أليس كذلك؟.. أنت مشتاقة للنوم الليلة في سريري؟

لقد كبرت.. غدا ستتمين الخامسة".

- يا أمي، إنني أرى طفلة صغيرة تجلس على سريري تدعى جوري.. تزورها امرأة غريبة تدعى حورية!

- يا عزيزتي لقد اختلطت عليك الأمور.

- صدقيني يا أمي!

بعد قليل تعود الدمية ممسكة بيد والدتها.. تقول لها أمها: "سوف أحتضنك حتى تنامي".

تقترب الأم من السرير..

تصرخ حنان: "انظري يا أمي، لم تسمح لها حورية بالذهاب إلى الحمام.. لقد بللت سريري".

أرتجف.. "إنه سريري أنا.. و أنا لست شبحًا.. ثم إنني لم أبلّل سريري.. لقد

فعلتها تلك الدمية الحمقاء حنان".

تحتضنها أمها: "لا تقلقي، لن أعاقبك.. لكن لا تتحدّثي بخصوص وجود جوري وحورية".

- أقسم يا أمي أن جوري جالسة على سريري الآن.

- وما شكل جوري؟

- إنها تشبه تلك الصورة التي تعلقها جدتي في غرفتها!

تتذكر الأم تلك الصورة التي تعود لعمة حنان التي توفيت وهي صغيرة!

تدخل إلى والدة زوجها.. توقظها من نومها تسألها: "هل كان لديك خادمة تدعى حورية؟".

- لم تكن خادمة.. لقد اعتبرتها ابنتي الثانية.. لقد كانت المسئولة عن وفاة ابنتي جوري.

- هل قتلتها؟

- كانت تضع لها المنوّم في اللبن بحجة أن لديها سبعة أبناء.. مرة احتالت عليها ابنتي جوري، ولم تشرب اللبن.. وعندما خرجت حورية تبعتها جوري.. ومن اللا مكان صدمت سيارةٌ مسرعة جوري.. وتوفيت فورًا!

اختفت حورية.. بحثنا عن عائلتها.. لم يكن لديها سبعة أبناء.. كان لديها طفل واحد مريض وكانت تبحث عن متبرع بإحدى كليتيه للطفل الوحيد.. كانت تخدر ابنتي وتأخذ منها عينات التحاليل سرا.. في كيس

أسود تخفيها وسط بقايا الطعام!

لم تَمُتْ ابنتي في حادث السيارة، ولم تغافلها حورية.. كل ما في الأمر أنها استغلت سفر زوجي وانشغالي؛ فاختطفتها، وبعد أن قام طبيب غير شريف بعملية الزرع.. توفيت جوري على الفور؛ بسبب خطأ في التخدير، ولمحو كل الأدلة.. ألقت بجثة ابنتي في طريق السيارات.. لم تَسِرْ الأمور كما تريد.. كانت تظن أنها ستتصل بنا فور عودتنا إلى المنزل، وتخبرنا أن ابنتي كانت تعاني من انفجار الزائدة، فشقّ الطبيب بطنها على وجه السرعة.. وكنا كأي أحمقين مشغولين سنصدق.. ونعود لنكمل جمع الأموال!

(٣)

ابنتنا ثورة!

في كل ليلة يحفِر القبر الذي دُفنتُ فيه.. يزيل التراب عن عظام وجهي.. ليتأكد أنني لا أزالُ في مكاني.. أحفظ سره الأعمق.. يتأكد من تحلّل جسدي.. يلمس ما تبقى مني.. تخبره عظامي عن الوقت الذي مر علينا.. وحيدين.. بعيدين جدا.. يبكي!

يتذكر جريمته.. لولا أنك ولدت أنثى.. لولا أنك جئت في الترتيب الخامس بعد أربع بنات! لولا الخوف.. لولا البطونُ الخاوية.. لما أخذتك يوم وضعتك زوجتي.. ولففتُ يدي الآثمة حول رقبتك الطاهرة.. وقبل أن يتحوّل وجهك إلى اللون الأزرق.. أبصرت عيناك قاتلَك..

دفنتك.. واختبأت الجثة عن أعين الجبناء.. يومها عدت إلى والدتك.. سألتني عنك. أخفضت رأسي!

صرختْ!

- لماذا لم تتركها تحيا؟!

كان الممكن أن تتغيّر أحوالنا.. أن تتبدل قصتنا مع قصة أحد الأغنياء.. أن نترك ضفة الفقراء.. ونسكن في قصر عالٍ يُطِلُّ على بُحيرة من ذهب..

رفعت رأسي..

- لو تركتها تعيش لقُتلتُ أنا و أنتِ وبناتنا الأربع.

لقد غفوتُ وقت وضعك للفتاة.. وقتها جاءني هاتف: "مبارك يا علي، رُزقتَ بفتاة.. سمها ثَورة.. سمها ثورة"!

فتحتُ عيني، واستعذت بالله من الشيطان الرجيم.. وسألت الله بإلحاح لم أسأله بمثله من قبل أن يرزقني صبيا.. لكي لا تتحقق هذه الرؤيا.

حتى بشّروني.. بثورة.. فتحققت أكبر مخاوفي.. وتوقف نبض قلبي.. ودار كل شيء من حولي.

كانت تبتسم.. كانت تضحك.. شعُرتُ أنها تهمس لي: "صدّقني.. أنا النبوءة.. أنا نهاية الظلم.. وبداية الحياة".

بكيت.. أخفضت رأسي.. حاولت ألا أحتضنها.. ألا أحبها.. هي أملي وأملك و أمل بناتنا الأربع.

وقتها.. هدأت والدتك.

و قالت لي بمواساة لا تقدر غيرها على منحها لي:" جيد أنك قتلت ابنتنا ثورة،

وإلا لغرقتنا بطوفان الأمنيات.. قبل أن يختطفها أحدهم من بيننا عنوة".

(٤)

لقاء في الهاوية!

وقفتُ على حافة الهاوية أستجمع شجاعتي.. هاجمتني الذكريات من كل صوب.. ذكريات عتيقة عمرها عشرون سنة.

سقطت دموعي على الصورة التي بين بيدي، ستخدعك الصورة، ستغريك الابتسامات التي على الثغور، لكن نظرة السيدة التي في الصورة ستفضح لك الحزن المخيّم على أرجاء عائلتها، ستفضح لك الألم، وستكشف لك عن المرار الذي لن تتذوقه إلا إذا أنعمت النظر في انعكاس عينيها!

ألقيت بنفسي، و أنا لا أعلم حقيقة الشائعات متشبّثة بأغلب الظن، متأملةً أن يحمل عني السقوط وباء اليأس، وأن يهبني سببًا قويا كافيا لكل هذه السنوات من الفقد!

"هاوية الأمنيات"!

أَلْقِ بنفسك؛ لتحصل على ما تتمنى!

أَلْقِ بزوجتك القبيحة؛ لتعود إليك جميلة!

أَلْقِ بالعانس؛ لتتزوج، وأَلْقِ بالعجوز؛ لتعود شابة!

لذلك ألقيت بنفسي لأجد الراحة بعد شقاء السنوات!

لوهلة تردّد في عقلي صوت الحكيمة:

لا تذهبي؛ فالقاع مظلم!

دعي الماضي يمضي!

لا تدعي ماضيك يفسد حاضرك!

كثير من الأشياء، إن عُرفت أفسدت!

كثير من القصص، إن فُضحت؛ انتهت معها الحياة!

ولأن ما لا نعرفه ينغّص علينا أجواء حياتنا حتى نعرفه.. فإذا عرفناه إما أن يجعل حياتنا أكثر شقاء، أو يكتفي بنَدَبَةٍ تبقى في أرواحنا!

الهاوية لم تكن وهمًا.. أناس كثر.. علاقات غريبة.. مسيرة أيام.. لا أعرف كم مرّعليّ من الزمن فيها!

أقتات على ثمار الحدائق.. هنا الفاكهة متاحة للجميع دون ثمن.

هاوية تبدو لك مثالية، لا ينغصها إلا لسانك الذي ليس لك عليه سلطان، كل ما تفكر به، ينطق به، لا مجال هنا للكذب!

أماكن لا تنتهي، وخيالات كثيرة.. أبحث عن امرأة تشبه الصورة التي في يدي.. أبحث عن الجزء الملتهب في قصتي "أمي"!

لأسألها سؤالا ينهي الشقاء، ويُخرس ألسنة الغرباء عن تخلّيها عن عائلتها، وهروبها مع شاب وسيم!

أريد أن أعرف منها الحقيقة كاملة!

سلمى لا تزال في انتظارها، وعمار، حتى أبي ما يزال ينتظر عودتها.. الجميع يريدها أن تجيب عن أسئلتهم، إلا أنا أريد أن أشتم رائحتها، وأذوب بين أحضانها.. أريدها هي.. لا حاجه لي بالحجج، ولا بالأعذار!

بعد بحث وجهد عظيم.. وجدت امرأة تحضر طعاما لأبنائها، يُهيء إليّ أنها أمي.. اقتربتُ منها لأتبين ملامحها وسط الظلمة!

- يا سيدتي، من فضلك، أتعرفين صاحبة الصورة؟

اقتربت من النار المشتعلة تحت إناء العدس!

إنها حقا والدتي.. نفس الملامح.

- من أنت يا فتاة؟!

- أنا ابنة صاحبة الصورة!

تحجّرتْ الكلمات على شفتي، وعزفتْ دموعي سمفونيةَ الفقدِ مع الوجع.. والحزن مع الحب.. والسعادة مع الشقاء!

احتضنتني بقوة.. ذُبْتُ بين يديها.. ذهب صدأُ السنوات في حضن واحد زال كل الوجع في لحظة!

- أنت نداء الصغيرة.. من يهتمّ بك يا صغيرتي؟ كيف حال سلمى وعمار؟ هل ما يزال والدك يضرب سلمى؟!

عمار على الكرسيّ المتحرك.. ألم يتغير وضعه؟!

- لا يا أمي.. أبي رجل نبيل.. سلمى تزوجت، وعمار أصبح رسامًا مشهورا رغم عجزه!

رأيت دموع أمي.. دموع قهر وعجز!

- ولكن من هؤلاء الصغار يا أمي؟!

- هؤلاء الذي فُقدوا قبل زمن، أو سقطوا دون عائلتهم، أعتني بهم أعوّض بهم حقكم المسلوب.

- تربّين أبناءً ليسوا من صُلْبِك بعدما تركت أبناءك يتجرعون الحرمان والفقد!

لماذا هَرَبْتِ مع ذلك الشاب؟!

لماذا تركتِنا نبكي خلفك تلك النَدَبات التي صنعتِها في قلوبنا؟!

لم نعد نثق في أحد!

عمار إلى الآن لم يتزوج! وسلمى طوال الوقت حَذِرة خائفة!

وأنا أكثرهم جرحًا وأقلهم قوة! ضعيفة هَشَّة بين الماضي والحاضر في المنتصف.

لا يمكنني العيش في الماضي، ولا يمكنني العبور إلى الحاضر.

ولأن ما تفكر به، سوف ينطق به لسانك حتى وإن ألجمته.. نطق لسانها رغما عنها، وقالت:

أنا لم أهرب وأترككم، كل هذه السنوات من الظلم والحرمان سببها والدك الأناني.. ألقى بي في الهاوية، وتمنى أن لا أعود لكم.

ألقى بي، وكأنه يلقي بعَجْزه وفقره وقله حيلته، كأنه يلقي بكل ما هو سيئ في شخصه،

لم أكن أريد أن أتكلم.. ولكن عزائي الوحيد أنكم بخير!

- عودي معي يا أمي!

- لا يمكنني العودة، ووالدك على قيد الحياة.. تلك كانت أمنيته!

إن سبقني أجله؛ سأعود.. وإن هلكت قبله؛ فعزائي أنكم بخير!

(٥)

أعيدوا لي كبدي!

اليوم يوم زفاف زوجي إلى خطيبته السابقة.. وأنا أراقبهما وأحترق.. ضربتُ بكل النصائح عرض الحائط.. كان بارعًا في الكذب، وكنتُ أريد أن أصدّق!

في حفل الزفاف الميمون.. يراقصها وتراقصه.. يَدْعَسان بقدميهما ذكرياتي وأحلامي!

سيُرزقان بأطفال.. سوف يلعبون في حديقة منزلي الذي ورثته عن أجدادي ..ليتك كنت قاسيا يا والدي بما يكفي، لتحقق تهديدك لي بحرماني من الميراث.. لكي لا أراهم يتمتعون بما قضيتَ حياتك في جمعه! ليتني رأيتُ بأعينكم.. رأيت خبثَه.. وكذباته.. هذه الأطلال سأبكي عندها كثيرا.. لكنني سوف أؤجل حزني لوقت آخر.. الآن عليّ أن أبحث.. عن المكان الذي أَخفى فيه السكين الذي شقّ به بطني، وأخرج كبدي.. وأهداه إلى جسد خطيبته السابقة.

ذلك الأحمق.. أين أخفى السكين التي أيقظتني على الحقيقة المُريعة.. لقد كان طامعًا في كل شيء.. حتى أنه دفنني جثة ناقصة لأجلها وفقط.. إنهما يستمتعان بالثروة.. تراقصه ويراقصها! يضحكان.. يهمس في أذنيها: "هل أعجبك كبدك الجديد؟".

يضحكان.. أسمعهما وأراهما.. إنه كبدي أنا!

أعيدوا لي ما كان ملكي!

أين أخفى السكين؟ لو أنني أجد السكين!

لو أنني أجد السكين!

فأهمس في حُلم شرطي التحقيق بمكانه؛

فيجد بصمات زوجي العزيزعلى السكين، وبقايا دمي على نَصْلِ السكين.

المجرم.. يعود دائما ليتفقد مكان جريمته!

عليّ أن أنتظرحتى يدلنا على مكان السكين!

وليُصِبْ كبدَك الجديد يا زوجة زوجي الجديدة... فيروس ما.. يجعلك.. تشقين بطنك بنصل حاد لتخرجي كبدا لا يَمتُّ لك بصلة!

(٦)

الطفل الذي فقد رأسه!

الطفل الذى فقد رأسه عندما حاولتُ محاولة فاشلة منيّ، لتفاديه حين ظهر فجأة أمام سيارتي.. فقذفته مقدمة سيارتي بعيدا.. وقتها كنتُ خائفًا جدا فهَرَبت.. دون أن أفكر في النزول من السيارة ومساعدته.

ذلك الطفل لا يزال يسألني كل ليلة: أين أضعتُ رأسه؟!

لقد بحثت كثيرا عنها لأدفنها بجوار ما تبقى من جثته.. وحاولتْ بعض الأشباح مساعدته ومساعدتي.. فهمسوا لي بمكان قبر.. تقدمتُ والظلمة دليلي وغطائي.. لكي لا أقضي ما تبقى من حياتي في مقابلة هذا الطفل الذى فقد رأسه.. فتحتُ القبر الموصوف لي مُسبقا.. وجدت رأس الطفل بين أحضان امرأة بدتْ لي قليلة الحيلة.. حاولتُ سحبه من بين أحضانها.. فتحت عينيها المذعورتين.. نظرتْ إليّ بوجه شاحب.. أمسكت يدي الممتدّة.. أحكمت قبضتها حول مِعْصَمي.. نظرت إلى عيني.. سألتني بما تبقى من صوتها المسلوب منها:

إلى أين تأخذ رأس طفلي؟!

أفلتت يدي إِثْرَ سماعنا همسةً خلفية.. أدرتُ ظهري.. تجمدت مكاني!

حارس المقبرة.. سأل:

ماذا تفعل هنا؟

- أضعت حافظة نقودي، وكنت أبحث عنها.

- في هذه الساعة المتأخرة؟

لم أُجِبْ.

سألني الحارس: هل كنت تبحث عن رأس الطفل الذى فقد رأسه؟

تعجبت. - وكيف تعرف بالأمر؟

- منذ عشرة أعوام.. وهم يحاولون دفن هذه الرأس بجوار جثتها.. لكن امرأة قليلة الحيلة تمنعهم.

- من هم؟

- من يُخيّل إليهم أنهم صدموا الطفل الذي فقد رأسه.

- تقصد أنني صدمتُ شبحه قبل ثلاث سنوات؟

- نعم.

- وكيف فقد رأسه؟

- بسبب الجوع.. والفقر.. والمرض.. والعجز!

كانت تحاول والدته حمايته من الألم.. طلب منها أن تقطع رأسه؛ ليتوقف صداعه إلى الأبد!

فقطعتها لأجله هو.. ثم احتضنتها إلى الأبد.. إثر هبوط حاد في دورتها الدموية..

حاولوا تخليص الرأس منها.. لم يستطيعوا.. فدفنوا رأسه معها.

- وما شأني بهذا كله؟

- لعلك أحد الذين توسَّلَتْ إليهم.. فلم ينقذوها من عجزها!

(٧)

سقوط اضطراري في وادي العميان!

(١)

قال غريب:

أن تبصر هذه هي مشكلتك الكبرى.. عليك أن تجد حلا!

قم بخياطة جفنيك!

أو افقأ عينيك!

أو ارتدِ عصابة للعينين.

المهم ألا ترى.. لكي لا تكلفك الرؤية ثمنًا لن تستطيع سداده!

ربما حُلمَك.. وربما هُوِيَّتَك.. أو ربما تكون رقبتَك!

"عند سماع الإشارة الصوتية، اخلعوا عصابة العين وابدؤوا اللعب!"

الجملة التي أسمعها مرارا وتكرارا منذ وصولي وحتى اللحظة!

لكن الموسيقى لا تعزف.. وعلى ما يبدو، لا أحد يريد اللعب!

(٢)

وقال صديق لصديقه:

جُدران صَدِئة.. ضفادع وعناكب.. وظلّ يحاول التَّمَلُّصَ من الزُّقاق!

لا رِفْقَ ولا رِفاق!

- يجب أن يكون هنالك ضحايا.

- أعرف ذلك جيدا.. لكن من؟

- من لا يملك.. ومن لا يستطيع أن يصل إلى من يملك!

- إذن.. دعني أختار ضحيتنا الأولى.

- نحن لا نختار أحدا.. نحن ننصب الشباك.. وتقع الضحية فيه بكامل إرادتها.. نحن لا نجبر أحدا على شيء!

أعمى يقود أعمى.. تائه يجر تائها.. ضالٌّ يتبع مُضلّ برغبته وبعجزه.. الجميع غارق في دهاليزَ مظلِمة.. برغبتهم.. خوفًا مما تفرضه عليهم الرؤية من ضريبة!

(٣)

نزاع بين رغبة ورهبة!

يا إلهي! الظلمة تخنقني.. تَلُفُّ حولي اليأس.. تجلدني بسياط من غربة وحزن!

و أنا أحاول الإبصار.. أحاول إزالة العصابة التي ربطتها لي عائلتي يوم وُلدت.. لكن يدي مكبَّلةٌ بالخوف.. لن أجرؤ ولن أستطيع تحمل تبعات كسري للقواعد.. والعادات!

أَلْفُ يد تسرق في الظلمة.. وأَلْفُ حُلم تقتله الظلمة.. و أنا أسمع حكايات بعض المتمرّدين عن سحر يدعى المرايا.. تخيّل لو ترى

ملامحك.. وتعجبك ثيابك.. وتتعرف الألوان!

تخيل لو ترى.. نفسك.

"عند سماع الإشارة الصوتية: اخلعوا عصابة العين وابدؤوا اللعب"!

الجملة التي أسمعها مرارا.. وتكرارا.. لكن لا أحد منا قد يجرؤ على خلع العصابة..

جميعنا مضطرب في تفسير معناها!

هل المقصود منها اختبار للولاء؟

أو هي كلمات بعض المندسّين الذين يريدون حدوث شيء مرعب.. كالثورة؟!

كل شيء يحتمل التفسير.. عدا.. أن يكون معناها.. ما تشير إليه الكلمات دون تأويل أو تحريف!

(٤)

كأي أب!

نحن لا نعرف شيئا يا ابنتي غير الظلمة!

ولا نستطيع العيش إلا في الخيال

إلى أين تريدين منا أن نصل؟

الجميع لا يرى.. والجميع راضٍ.. لماذا تحاولين فعل شيء آخر؟

لماذا تريدين فك العصابة؟ ما الذي ستحصلين عليه أكثر من الرؤية؟

ستعيشين وحيدة.. ستتعذبين.. لن تجدي أحدا يشبهك!

في شبابي كنت أفكر بحماقة.. مثلك تماما!

تخيلي.. كدت أفكّ العصابة ثلاث مرات.. لكنني لم أستطع!

يوم اختارت لي جدتك والدتَك عروسًا.. تمنيت لو أرى جمالها الذين يتحدثون عنه دون أن يروه.

ويوم وفاة جدك.. تمنيت لو ألقي عليه نظرة واحدة.. نظرة وداع تشبع رغبتي، كلما حلّ الحنين ضيفًا ثقيلًا على كاهل قلبي!

ويوم ولادتك.. كنت أتمنى أن لو أستطيع رؤيتك!

كل هذا ولم أستطع، يا ابنتي!

ليتني سمعت نصيحة جدتك يوم ولادتك.. وفقأتُ عينيك.. لكي لا أعيش كل يوم في نفس الخوف من أن تخلعي عصابتك.. وتري!

(٥)

تمرّد

"سامحني يا والدي!

لم أكن أقصد أن أخذلك.. كل ما في الحكاية أنني أردتُ الحياة..

سمعتُ عن الضوء والرؤية والألوان.. أريد فك العصابة.. والفرار..

لا أريد لأبنائي أن يعيشوا في الظلمة مثلي..

رجاء سامحني!"

بعد أن أنهت فاتن كتابةَ رسالتها بطريقة بِرَيل.. وضعتها بجوار جريدة والدها المكتوبة هي الأخرى بنفس الطريقة!

جريدته التي يقدسها، ويقرأها كل صباح.. جريدته التي لا يعلم كيف

تنقل لهم هذه الأخبار- الأكاذيب- من وسط الظلمة!

خرجت فاتن.. بحثا عن طريق الخلاص من الوادي المليء بالحمقى!

تتحسس طريقها.. تتكتّم على أنفاسِها لكي لا يشتمَّ أحدٌ نيتَها في الهرب!

تمشي على حطام القواعد التي بدأت في تحطيمها!

تكسِرُ قاعدة تلو قاعدة.. ويتمزَّقُ بين يديها خوفٌ بعد خوف!

تبحث عن الحكيم الوحيد، في الوادي الذي يعرف طريقة الخلاص الوحيدة، من هذا الوادي!

تتردّد في خطواتها.. لو كان يعلم!

لماذا هو باقٍ في الظلمة؟!

ربما.. هو مندس آخر!

(٦)

لم يكن الوصول سهلا ولم يكن الطريق مكسوًّا بالزهر!

كل ما في الأمر.. أن الرغبة في الخلاص ستوصلك.. الشغف والرغبة في المغامرة والحياة! سوف يكسو انك ريشًا لكي تستطيع التحليق عاليا!

"لا تخف.. نعدك ألا تسقط.. تمسك بنا جيدا وسنمسكك"!

وصلت فاتن حاملةً بين يديها الكثير من الخوف، وقدرًا لا بأس به من كُره الظلمة!

جلست بين يدي الحكيم.. تسأله عن طريق الخروج الوحيد من الوادي!

قال لها: الأمر سهل، طريقتك للهروب أن تخلعي عنك عصابتك وتري!

- لكنهم يقتلون من يخلع عصابته.

- كيف سيعلمون أنك خلعت عصابتك؟

- سيعلمون.. إنهم يعلمون كل شيء.. لماذا لا تخلع أنت عصابتك أولا لترى؟!

- لا أستطيع.. ولا يمكنني.. لست مثلك!

- ماذا لو قتلوني؟

- على الأقل ستعيشين لحظة حقيقية قبل الموت.

نزعت فاتن عصابتها.. لكنها لم ترى.

سواد شديد يغلّف الأرجاء.

- سيدي الحكيم.. إنني لا أرى.

- بعد قليل سوف تَرَيِنَّ.. في البداية سَتَرَيِنَّ ذبابة.. احذري.. هذه الذبابة ليست موجودة..

- ما شكل الذبابة؟

- لا تتعجلي.. ثم سَتَرَيِنَّ الضوء شيئا فشيئا!

- ما الضوء؟

- لا تتعجلي!

ظهرت الذبابة!

- إذن هذه تدعى ذبابة.. إنها ليست موجودة.. كيف سأفرق بين الحقيقة والخيال؟

يتسرب الضوء شيئا فشيئا..

تقفز فاتن من مكانها فرحة مسرورة بالضوء..

هناك رجل في ركن الغرفة!

- هل علمت الآن.. لماذا لا يمكنني الرؤية.. لقد فقؤوا عيني!

- من هم؟

- الخائفون.. أعداء الضوء!

فاتن.. عندما تخرجين من هنا.. ستسرين مسافة مائة قدم.. عندها ستجدين شجرة صَنَوْبَر كبيرة..

أسفلها تماما ستجدين على عمق متر.. خريطة.. ستوصلك إلى الأعلى!

ستخرجين.. لكن بمفردك!

أو.. ما رأيك أن تحملي شعلة الضوء.. وتخرجي أهل الوادي من الظلمة..؟

ما رأيك أن تنقذي الجميع؟

- لكنني لن أستطيع!

- سأساعدك.. سأعطيك مفتاح حل اللغز!

الحل في العبارة التي نسمعها كل يوم!

ثم همس الحكيم لفاتن بسر ما!

وبعد أن أكمل كلامه.. سمعوا العبارة:

"عند سماع الإشارة الصوتية؛ اخلعوا عصابة العين، وابدؤوا اللعب"!

(٧)

عندما قرأ والد فاتن الرسالة.. سُقِطَ في قلبه وسقطت الورقة من يده!

"ليتني سمعت كلام أمي.. ليتني فقأت عينيك يا ابنتي،

ترى ماذا أصابك يا صغيرتي..؟

أتمنى أن تكوني بخير!".

حل اللغز في عبارة:

" عند سماع الإشارة الصوتية؛ اخلعوا عصابة العين، وابدؤوا اللعب !"

خرجت فاتن.. من عند الحكيم وهي تفكر.. هذه العبارة التافهة كيف تكون هي حل اللغز..؟

سِحْرُ الضوء.. يكاد يغُويها لتذهب إلى شجرة الصَّنَوْبَر.. وتفر بنفسها وتدعهم.. يكملوا الحياة التي اختاروها أو بالأحرى التي ارتضوا بها..

لكنها تشتاق إلى رائحة والدها.. ولرؤية ملامح والدتها.. ستمنح والدها أمنيته، التي طالما تمناها ولم يتحلَّ بالشجاعة لتحقيقها!

ستجعله هو أيضًا يبصر مثلها!

تحاول أن تتلمس طريقها، كما اعتادت؛ لكي لا يكشف أحدهم قدرتها على الإبصار!

ما قيمة الضوء وأنت وحيد جدا...؟

تسمع العبارة:

" عند سماع الإشارة الصوتية؛ اخلعوا عصابة العين، وابدؤوا اللعب !"

تنظر إلى الناس، ورد أفعالهم ساعة سماع العبارة!

إنهم يرتعبون.. يُحكمون وَثاقَ العصابة!

لا أحد يخلع العصابة ولا أحد يجرؤ على اللعب!

عندما تنتهي الإشارة الصوتية يهدأ روعهم.. ويكملون ما هم بصدد إتمامه!

من أين تصدرهذه العبارة التافهة..؟

أَسَرَّتْها فاتن في نفسها.. وهي تقلّب بصرها في الأرجاء!

تذكرت كلام الحكيم عن قصة هذه العبارة:

"إنها الذكرى.. والبقية الباقية من أيام الضوء..

كانت هذه المقولة لثوري حاول تحرير الجميع..

كان يريدهم أن يفكوا العصابة ويبدؤوا الحياة..

حينما أنهى هذه الجملة؛ لم نسمع الإشارة الصوتية.. سمعنا صوت طلقات الرصاص التي اخترقت جسده.. لم يتجرأ أحدهم أن يَفُكَّ عصابته..

لذلك يعيدونها على مسامعهم كل يوم لكي لا يفكر أحد في فك العصابة!" .

(٨)

كانت فاتن تقريبا في منتصف المدينة، حين سمعت هذه العبارة التافهة مرة جديدة.. كان الصوت قريبا جدًّا.. قلبت بصرها في الأرجاء..

لا بد أن الصوت يخرج من هذا المبنى التِّجاريِّ الكبير..

بل لا شك في ذلك!

دخلت المبنى التِّجاريَّ... تذكرت كيف كانت تشتري ملابسها عن طريق التحسس واللمس.. قلبت عينيها بين المحرومين من الضوء.. بإرادتهم

هل سأحظى بنفس نهاية الثوري؟!

أي الرصاصات التي ستخترق جسدي ستقتلني أولا.. أتمنى أن أول الرصاصات ستغمد في عيني لكي لا أبصر قاتلي ومخاوفهم..

الموت.. ما هم فيه هو الموت الحقيقي!

سأنقذهم!

وصلت إلى غرفة النداء الآلي..

لا بد أن هذا المكان هو مصدر صوت هذه العبارة

دخلت الغرفة!

رأت رجلًا يجلس بجوار مكبر الصوت..

سألت مدعية أنها لا ترى:

هل هنا أحد؟

أريد أن أنادي على ولدي الذي أضعته.. إنني أحترق يا سيدي.. أظن أنني لن أستطيع استرجاع ولدي..

- ما اسم ولدك يا سيدتي؟

إنه يدعى بسّام.. طوله حوالي النصف متر.. إنه ضعيف جدا ويضع رائحة الفل..

من فضلك أنقذنا..

ثم انهارت فاتن تبكي..

ضغط الرجل الجالس بقرب مكبر الصوت على زر معين .. نرجو المساعدة هناك طفل تائه.. يدعى بسّام طوله حوالي النصف متر، إنه

ضعيف جدا.. يضع رائحة الفل.. من يجده يحضره إلى غرفة النداء الآلي.. والدته بانتظاره..

بعد أن أنهى الرجل كلامه ضغط على نفس الزر..

جلست فاتن تبكي بجوار الرجل الذي يحاول تهدئتها.. لا تقلقي سوف نجده..

مرت الساعات الطوال، ولم يأتِ إليهم خبر يخص الطفل التائه!

- سيدتي، من فضلك.. حان وقت الانصراف.

تمنياتي بأن تجد ولدك سريعا.. لماذا لا تذهبين إلى قسم الشرطة..؟

- بارك الله لك يا سيدي!

اختبأت فاتن في إحدى دورات المياه.. حتى خرج الجميع من المبنى التّجاريّ!

وعندما تأكدت من خلو المبنى.. ذهبت إلى غرفة النداء الآلي..

ليس من السهل التعامل مع كل هذه الآلات!

قلّبت بصرها بين الآلات التي لا تفهمها حتى وجدت

جهاز حاسب آلي، يشبه على نحوٍ ما الجهاز الذي في منزلها، في أنه يتلقى الأوامر عن طريق الصوت بدلا من لوحة المفاتيح!

طلبت من الحاسب الآلي.. أن يبحث لها عن عبارة:

"عند سماع الإشارة الصوتية: اخلعوا عصابة العين، وابدؤوا اللعب"!

قامت بفتح الملف وتسجيل عبارة أخرى.. سيستيقظون عليها غدا..

قامت باللعب بإعدادات الصوت، وخواصه.. ليكون التسجيل الجديد بنفس خواص التسجيل القديم، ثم اختفت في إحدى أركان المبنى التِّجاريِّ حتى الصباح!

وعندما فتحت أبواب المبنى التجاري.. ارتدت عصابة عينيها وخرجت مسرعة وعادت إلى منزلها..

عرفها والدها من رائحتها!

- جيد أنك عدت يا فاتن.. والحمد لله أنني لا أشتم رائحة الدم!

- سامحني يا والدي.. لم أكن أقصد إخافتك!

" عند سماع الإشارة الصوتية؛ اخلعوا عصابة العين، واهربوا.. هناك نَيْزَك سوف يصطدم بالأرض خلال دقائق.. انجوا بأرواحكم.. لن يستطيع أحد إنقاذكم.. أنقذوا أنفسكم"..

مع سماع الإشارة الصوتية.. نزع الجميع عصابات أعينهم..

إنهم لا يرون شيئا.. يرون الذبابة.. يتسرب الضوء شيئا فشيئا..

الجميع يرى..

ينظر والد فاتن بفخر لابنته.. إنك تشبهيني كثيرا.. غير أنك أنقذت الجميع يا ابنتي..

تضحك فاتن.. وهي تتدلَّلُ على والدها:

– لم أكن أنا يا والدي..

- لا تقلقي.. لا أحد سيعرف هذه الحقيقة غيري.

(٨)

للزهر شوكٌ يحميه!

كانت زهرةً يانعةً.. وكان فلاحًا قاسيًا.. أعجبته.. فأفسد حياتها.. قطفها وتملكها فماتت بين يديه فرمى بها بعدما ذهبت عافيتها، وأيقن أن لا فائدة تُرجى من بقائها!

في اليوم التالي تفتحت في الحقل زهرة أخرى.. أغراه ضعفها وبراءتها.. أرادها لنفسه.. فحدثته نفسه أن يقطُفها.. فَوَخَزَتْهُ الشوكة القاسية المناضلة بِضَراوةٍ للحفاظ على حياة الزهرة الضعيفة.

نظر إلى أصبعه الملطّخ بالدم.. مرر أصبعه على قميصه ليطبع قطرات الدم على ملامحه.. لكي لا ينسى غدر الشوكة!

مال بوجهه إلى الجهة الأخرى.. أخذ يُتَمْتِمُ: *"قضيتي مع الشوكة.. ستسقط الشوكة وسأظفر بالزهرة"* !

فجر جديد حمل الصباح للحقل.. وبُقعة الدم لا تزالُ تزين القميص لكي لا ينسى.. ألقى التحية على الزهرة البريئة.. مرحبا يا زهرتنا الحلوة، اليوم ازددت جمالًا.. أشتم بك رائحة الثقة والزَّهْو بنفسك.

تَغَزَّلَ الفلاح، والبريئة أرهقتها حُمْرَةُ الخجل.. ظهرت له الشوكة وعليها علامات الغضب!

أراد أن يقترب من البريئة لكنه لا يزال يعاني من ألم الوخز الغادر.. أدار ظهره وانصرف.. والصمت الخادع لا يمكنه أن يخفي الحقد الصارخ: *"قضيتي مع الشوكة.. ستسقط الشوكة، وسأظفر بالزهرة"* !

مرت الأيام والزهرة تزداد نُضجا ونضارة، والشوكة تزداد قوة وصلابة، والفلاح يزداد تعلقًا وشَغَفًا بالزهرة البريئة، كما لو أنها الزهرة الوحيدة في الحقل.. العقل غادره الصبر وغدرت به لوعة الشوق بالظفر!

"قضيتي مع الشوكة.. ستسقط الشوكة وسأظفر بالزهرة"!

اليوم آخر أيام الصبر.. فلتسقط الشوكة.. لا مزيد من الصبر!

قرر الفلاح استعجالَ النهاية.. سقى الزهرة السُّمَّ؛ كي تبتلعه الشوكة فتسقط وتموت ويسارع في إنقاذ الزهرة.

شربت الزهرة السُّمَّ حتى ذَبَلَتْ.. ماتت الزهرة ولم تسقط الشوكة.. حزِنتْ الشوكة على الزهرة.. أوهمت الفلاح بموتها.. اقترب منها.. وخزته بقوة في عروقه.. تسلّل السُّمُّ من سطح الشوكة إلى جسد الفلاح.. انهار الفلاح سريعا.. لفظ أنفاسه الأخيرة، وبيديه شوكة تحمل للجميع العبرة.. هذا جزاء من يحاول العبث مع الزهرة!

(٩)

الأشباح في مدينتا خائفة!

أذكر تفاصيل ما حدث قبل أسبوع.. سمعتُ طَرْقاتٍ قويةً على باب منزلي.. فتحت الباب.. فإذا امرأة وَجِلَةٌ، وطفل بدا لي في الخامسة من العمر!

كانت تمطر بشدة خارجا.. لا أعرف كيف سمحت لهما بالدخول.. على الرغم من أنني عادة لا أسمح للغرباء باقتحام حياتي!

قدمت لهما مشروبا ساخنا.. وطعامًا!

تحكي السيدة الشابة: أصبحت أفعال البشر غريبة.. ليلة أمس كان يتجوّل زوجي في المدينة بحثًا عن طعام، فرأى رجلًا يضرب طفلًا جائعًا بريئًا.

حتى وإن سرق الرغيف.. هو طفل في الخامسة من عمره.. لا يمكنه أن يفرق بين الصحيح والسخيف.. كان للطفل عينان خضروان.. وشعر أصفر مُجَعَّد!

المسكين لفظ أنفاسه الأخيرة.. بمذلة وحسرة بعدما أريق دمه في الطُرُقات.. بعد دفن الطفل الصغير في مقابر الفقراء.. طرق زوجي الباب.. هَرِعْتُ إلى الباب أفتّش في يديه عن طعام.. لكنني وجدت بين يديه طفلا بدا في الخامسة من العمر بعينين خضراوين، وشعر أصفر مجَعَّد!

نظر إلي الطفل نظرة رجاء.. هَمَسَ لي زوجي:

ما رأيك في أن نتخذ هذا الطفل الجميل ابنًا لنا؟

فرحت به كثيرا.. لكن هذا يعني أن عدد الجائعين ازداد واحدا!

السيدة الشابة تحكي القصة.. وأنا أدّعي أنني لا أفهم شيئا!

ينظر إليَّ الطفل الجالس بجوارها نظرة رجاء بعينيه الخضراوين، وشعره المُجَعَّدِ الأصفر.

تهمس السيدة الشابة:

شكرا على حسن ضيافتك.. لو يصبح نصف البشر لطفاء مثلك.. لما زادت أعدادنا بهذه الطريقة.. شكرا لك وسنعود لزيارتك قريبا.. لا تغيّري عنوانك ولا تنتقلي إلى مدينة أخرى.. لقد أصبحت من اللطفاء!

(١٠)

ضحايا الاستسلام!

من المُرْعِبِ جدًّا أن تتحقق أكثر مخاوفك، وأكبر أشجانك أن تقف قريبًا عاجزًا لا تملك نفعا و لا ضرا.. تقف متفرجًا على أكثر فصول حياتك ألما وحزنا.. أن تفقد الأمل وأن تستسلم لأنك تظن أنك لن تجد طريقًا للمراوغة والهرب.. أن تتوقف عن الحرب وبنادقك ملأى بالذخيرة.. لأنك تؤمن في قرارة نفسك أنه لا جدوى من القتال ولا مخرج ولا مفر.. أنت ميت في كلا الحالتين، لا محالة!

كحالتي أنا.. أكثر ما أهابه في حياتي أن أفقد الصغير الذي نذرتُ له حياتي كاملة.. ناضلتُ حتى حصُلتُ عليه وحاربتُ حتى أحافظ عليه.. وأنا أوقن في قرارة نفسي أنني سأخسره في النهاية.. كأنه جاء لينير لي جزءًا مظلما من حياتي، ثم سيتركني أعيش ما تبقى منها في الظلمة!

الموت كان يحلق قريبا منا.. لو استطعت أن أحميه منه لفعلت.. لكن كيف سأحميه منه وهو لا مفر منه ولا مهرب.. صغيري مجد.. منذ ميلاده وهو مهدّدٌ بالموت في كل لحظة.. من ساعة ولادته المبكرة، والتجائه داخل وحدة العناية "الحضّانة" إلى هذه اللحظة التي أعلن فيها الطبيب أن أنفاسه في الحياة معدودة، وأن موته قريب لا محالة!

لم أتقبل الخبر.. احتجّتْ عليه دموعي المنسابة دونما أي اعتبار للمكان والزمان.. وقدماي الثقيلتان العاجزتان عن حملي، وأعصابي الخائرة الضعيفة.. لست بخير يا صغيري مأساتي كبيرة.. فقدك سيقضي على ما تبقى مني!

قررتُ أن تلفظ أنفاسك الأخيرة بعيدا عن عيني.. أن أهرُب من نظرات استجدائك وألمك!

أن اختفي عنك بإرادتي قبل أن تُحمل بعيدا عني.. أعدتك إلى والدك الذي ناضل كثيرا كي يأخذك من أحضاني.. لم أخبره أنك على موعد قريب من الموت.. لم أستطع أن أسمع ذلك النَّعْيَ الذي سينطقه لساني.. لا أريد أن أصدّق أنني لن ألتقيك مجددًا.. والدك الأحمق ظن أنني تخليت عنك لأتزوج.. فليظن كما يشاء.. وليتكهّن بما يريد وليقل ما يحب.. لم يعد بيننا تلك المساحة من العتاب وبَعْدَك لن يكون بيننا أي ذكرى.. كأننا لم نلتقِ، أو كأنك لم تكن.. هربت منك إلى أكثر الأماكن صَخَبًا؛ شقة استأجرتها مؤخَّرًا لا تحمل لك أي ذكرى.. تخلصتُ من كل وسائل الاتصال.. أغلقت هاتفي المحمول وحساباتي على مواقع التواصل الاجتماعي لكي لا يصلني نَعْيُك!

يا بني، لست بخير في بعدك.. اعتزلت الحياة لكن مخاوفي أبتْ أن تعتزلني.. أراك حولي في كل مشهد وأسمع بكاءك من كل صوب.. حتى أهملتني الحياة وتناستني في شقة وسط المدينة الصاخبة.. بعد أيام من وفاتي.. اقتادت رائحة الموت جيراني إلى شقتي!

أعلن الاسعاف وفاتي قبل عدة أيام.. بسبب صدمة قلبية.. لم أتحمل أن أراك تئن وتتألم.. لم أحتمل فكرة موتك وفراقك.. ذهبتُ قبل أن أعرف هل سبَقتني إلى هنا أم أنك لا تزال تستمتع بلفظ أنفاسك الأخيرة هناك!

بني.. سمعتك حيا ترزق عند قبري.. والدك كان يحملك لتودعني.. انتظرتك لتسكن القبر المجاور لي.. لكنك لم تأتِ جثة؛ أتيت حيا تتنفس.. كنت تزورني في كل مناسبة تقص عليّ ما أحببت، وما أردتَ، وأنا كنت أستمتع بقصصك.. ثمانية عشر عاما.. آهٍ.. أصبحتَ شابًا وسيمًا.. ليتني أستطيع احتضانك.. ليتني أستطيع تقبيلك.. لكنني رحلت.. كلانا ليس له ذنب في هذا الفراق.. إنما ذلك ذنبه وحده.. ذلك الطبيب القليل الخبرة الذي أخبرني بمرضك العضال قبل زمن.. فلم أحاول التشبث بك والبحث عن أمل، والتحري عن بقية حياة! استسلمت في حرب كان ينبغي عليّ النضال فيها حتى آخر رَمَق.. قتلتُ نفسي بالحزن عليك.

جيدٌ أنك بخير.. جيدٌ أنك صحيحٌ معافى، وأن الطبيب خانه العلم!

(١١)

الحديقة السرّية!

خلعتْ نعلَيْها أمام بوابة الحديقة السرية.. عرفتْ بابَ الولوج بقلبها.. تحسّستْ الأغصان الكثيفة.. إنَّ ما يقبع خلفها أكثرُ من باب.. إنه البداية أو ربما النهاية.. أو تفاصيل ستبدو مُضَيِّعةً للوقت في قصتها.. دخلت الحديقة، وما تحمله في قلبها أكبر مما تحمله في عقلها.. تشبَّثَتْ ببقايا أمل.. وبقايا حكاية أسطورية قصَّتْها عليها جدتها عما يوجد داخل الحديقة.. هناك شجرة تأكل منها لترى مستقبلها، وهناك وادٍ تغتسل فيه لتمحو أحزانها.. وهناك السر الأعظم الذي من يعرفه لن يَشِيخَ، ولن يشيب!

دخلت أميرتُنا الحديقة.. متطهّرةً متخلّيةً عن دَنَسِ حذائها الذي ذاق الأمرَّيْن، وهو يَنْزِفُ في الطُرُقات، بحثًا عن سعادة تقتنصها ذات يوم من فم الحياة .ولأن الأشجار كثيرة، ولأن الوِدْيانَ عميقة.. جلستْ أميرتنا على حافة بئر.. تبحث عن ذكرى تائهة، أخبرتها بها جدتُها العجوز، تصف فيها الشجرة المنشودة! ولأننا عندما نحاول التذكر، تأبى عقولنا عن إظهار الذكرى.. ولأننا عندما نحاول النسيان، تعصي قلوبنا أن تترك الذكرى لتذهب وحيدة في عالم المجهول.. لم تتذكر أميرتنا مواصفات شجرتها المنشودة. فحاولت الأكل من كل شجرة تقابلها.. وحاولت الاغتسال من ماء الوديان الذي تجده..

غير أنه لا شيء يحدث.. أتاها هاجس:

"ماذا لو كانت قصة خيالية.. نسجتها جدتها ذات يوم؟!".

قررت الرحيل.. وما أصعبَه من قرار، و أنت تجر خيبتك جرًّا، نحو المواجهة مع الحقيقة!

بحثت أميرتنا عن باب الخروج.. فلم تجده! وطلبت النجدة بصوت عالٍ.. فلم يجبْها مجيب! لقد تاهت في الوهم.. ولا شجرة قادرة، ولا وادي سحيق.. ولا و اقع، ولا مستقبل.. فقط سجن كبير.. ولَوْم عظيم.. على سذاجة طفلة.. وجدت الحديقة السرية، ولم تعرف أنه ليس كل الحدائق السرية سحريةً.. وليس كل هروب نجاة.. اشتعلت النار في الحديقة، إثر صاعقة برق!

احترق كل شيء، حتى قدماها عندما حاولت الهرب من النيران..

تذكرتْ قصة جدتها:" *اشتعلت الحديقة السرية، واحترق كل شيء.. قفزت الأميرة في الوادي المائل لونه للون زهرة البنفسج.. غرقت الأميرة، ولم تجد ما كانت تبحث عنه* "!

كلمات جدتها أنبأتها بالنهاية.. ستلقي بنفسها في الوادي المائل لونه للون زهرة البنفسج ..ولتحقق القصة.. تجري أميرتنا هَرَبًا من النيران.. تبحث عن الوادي المنشود.. تؤلمها قدماها.. تخنقها رو ائحُ الغضب والحقد والحزن.. تشتعل رُوحُها.. بينما جسدها لا يزال بخير..

ما الجدوى من تحقيق القصة بحذافيرها؟!.. تلقي بنفسها في البئر.. تجدُ نفسها أمام الباب السري للحديقة.. وبجوارها حذاء.. وقدمان متعبتان غير صالحتين للمشي.. على الأقل لوقت طويل!

(١٢)
شعب البالوعة العظيم

(١)

"يا أبناء الرغبة في الوجود، والرهبة من الفناء.. عندما تشرق عليكم الشمس ستختفون جميعا".

لم يكن يفكر مارتن، أن الأجنّة الناتجة عن دَمْجِ الحمض النووي للفئران بالبشري؛ سينتج له مَهْزلةً تاريخية.. كان ينتظر أن يحدث ثورة في البقاء، فالفئران البشرية ستمتلك جسد إنسان قوي، وحاسة سمع قوية، وستكون قادرة على مقاومة الفناء، بقدرتها على قرض كل شيء.. ستأكل الخشب، والأوراق، حتى أنها قادرة على أكل جثث الفئران الأخرى، ولن تمانع في قَضْمِ قدميها إذا لم تجد ما تأكله!

كانت أكبر مخاوف مارتن، أن تولد هذه الفئران بعيبٍ جيني في قدرتها على تمييز الألوان.. لكنها بدتْ له مشكلة يسيرة، سيحاول التغلب عليها لاحقًا، في التجارب القادمة..

"أبشروا يا أبناء البشرية؛ فمارتن قادم إليكم بالحل.. لن يفنى الجنس البشري؛ فالفأر البشري أكثر قوة وقدرة على العيش، تحت أي ظرف.. سيقوّي لديكم جينات الجبن.. مما يضمن لكم البقاء على كوكب الأرض.. أنا

خائف.. ستسمعها كثيرا من إخوتك الفئران البشرية.. ستهربون كثيرا، لكن لا أحد سيستطيع اللحاق بكم"!

عندما فتح مارتن الحاضنة.. باغتته الحقيقية؛ هذه الأجنة عبارة عن فئران صغيرة.. كائنات هَشَّةٌ جدا، ناعمة جدا، صغيرة جدا، غير قادرة على فتح عينيها.. لكن صوت المياه الراكدة وووفي البالوعة وصل الى مسمع الفئران فتحركت بسرعة نحو البالوعة في اخر المعمل.. في البالوعة وصل إلى مسمع الفئران؛ فتحركت بسرعة نحو البالوعة في آخر المعمل.. كل هذا يحدث، ومارتن فاغرٌ فاه.. يحاول فعل شيء غير الدهشة!

يحاول السيطرة على تفكيره.. لكن مشهد هروب الفئران المولودة توًّا، لا يغيب لحظة عن مخيِّلته..

هذه ليست فئرانا عادية.. نحن أمام كارثة حقيقية، إذا صدق العلم.. أو مهزلة تاريخية، ستجعلني أشحذ طعامي من المارة، أو ربما أدعي أنني مجرد عالم مجنون.. لأودَعَ بعناية داخل مصحة نفسية!

(٢)

في البالوعة القذرة.. لكي تستطيع العيش فيها، عليك أن تتقبل قذارتها، وأن تحاول محاكاة الواقع؛ لتصبح بدورك مساهما في صناعة القذارة!

مزمار السيطرة للأَدْهى.. أما البقاء فهو للأَجْبَن!

تلك الفئران البشرية تتكاثر عن طريق اللمس.. إنها بحاجة لساعات قليلة لتصبح أكثر بكثير مما تتحمله هذه البالوعة القذرة.. سيتشقَّقُ سطح البالوعة، وستجد الفئران نفسها على سطح الأرض، وهذا ما لا تريده الفئران البشرية.. على الأرجح!

إنها قادرة على التسلّل ليلا إلى منزلك، وقَضْمِ ذراعك، والتوقف كثيرا عند صور عائلتك.. والبصق عليها!

" ستفنون جميعا واحدا تلو الآخر.. ستموتون جميعا، لن نقتلكم بسم الفئران السخيف، ولا بحذاء قديم لن يتم استخدامه بعد تلويثه بدمائكم.. ستفنون بطريقةٍ لم تخطر يوما على بالكم" !

تعود الفئران قبل الفجر إلى بالوعتها القذرة، وكل منها تقصُّ على الآخرين مغامراتها الشيّقة..

المزمار بيد الأدهى.. يقف الفأر البشري "سمسار" يرفع كأسه:

"سعيد بإنجازاتنا في وقت قصير.. يا شعب البالوعة العظيم.. إننا بحاجة إلى زعيم عظيم.. لنفسد الكوكب بطريقة مُبْهِرة.. دعوني أرشّح لكم.. أول من وصل إلى البالوعة القذرة.. أخونا الكبير الفأر العظيم "هزيل"!

تتعالى الهتافات.. "هزيل قائدنا العظيم".

يقف هزيل.. يرتجف قلبه.. إنه أجبن من أن يرفض، وأغبى من أن يعتذر!

يحيّي الجماهير العريضة.. يعطونه مزمارَ الحكم.. مع الولاء.. سندفع حياتنا لحماية زعيمنا العظيم "هزيل"!

ولتبدأ المهزلة!

(٣)

حالة من الهَلَع.. وعدم الفهم.. تسيطرُ على المنطقة المليئة بالبشر.. أن تستيقظ لتجد ذراعك قد قُضم، أو رأس طفلك قد اختفى، ومادة لَزِجة على صور عائلتك.. فأنت في أكثر مشاهد التاريخ غرابة.. ولن يسمح التاريخ إلا للفئران البشرية بالتوضيح أو التفسير!

في الواقع لا أحد يبحث عن تفسير.. الجميع منشغلٌ بالبحث عن أماكن للاختباء!

إنهم يحرقون صور عائلاتهم وذكرياتهم وأمجادهم!

ومارتن يحرقُ ما تبقى من أبحاثه.. ليس خوفا من محاسبة قانونية، أو أن يكون ضحية غضب عارم.. إنه خائفٌ من انتقام الفئران البشرية، التي أصبح يعرف تقريبا عنها كل شيء!

وليس لديه حل.. فهو يعلم أن هذه الفئران البشرية ذِرْوة نجاحاته.. ولن يستطيع لمدة عشرين عاما، أن يصنع قططًا بشريةً تستطيع أكل هذه الفئران البشرية!

الحل في رأيه، أن يأكل هذه الفئران بعضها بعضًا، وهذا لن يحدث إلا بعد أن تُبادَ الأرض، ويختفي كل مصدر للغذاء!

حَذارِ أن تصل إلى عقلك فكرة الانتحار، و أنصحك إذا حدث هذا؛ بالتراجع فورًا؛ لأن جثتك لن تهنأ بمَرْقَد.. فالفئران ستتناولك قبل دفنك!

عليك أن تتحول إلى رَماد.. أو أن تستحمّ في حمض النتريك، و تستمتع و أنت ترى نفسك تشتعل وتنصهر إلى لا شيء.. تخيَّلوا هذا اللا شيء.. هو ما أفسد كل شيء.

مارتن رغم خوفه من الفئران البشرية يأمل أن تحنَّ إلى حمضها النووي البشري الذي يخصه، وتصبح صديقة له!

(٤)

هزيل الجبان الذي لم يفهم إلى الآن.. لماذا رشحه سمسار.. كان الأولى عند سمسار أن يرشح نفسه..

دخل عليه سمسار، وهو –هزيل- غارق في التفكير!

- لا تقلق.. أنا قدمك اليمنى، وصديقك المخلص، وأخوك الأصغر! جمعتنا تجارب واحدة، وحاضنة واحدة.. صحيح أن لدينا بعض الاختلافات التي لم أفهم إلى الآن كيف حدثت.. ونحن قد نشأنا في نفس الظروف، ونملك نفس الجينات الور اثية.. فكيف وجدت بيننا هذه الاختلافات؟!

- لست أعلم.. لكنني خائف.

- لن أستطيع أن أقول لك: لا تخف، فأنت مجرد فأر بشري. لكنني أعدك بأننا سنستمتع كثيرًا بإرعاب الآخرين.

شك مريب لن يستطيع هزيل تجاهله.. لكنه خاضع تحت سيطرة الخوف من

معرفة نوايا سمسار الحقيقية.. التي لن يستطيع فعل شيء حيالها.

"لا تفكر.. وأكمل السيروِفْقَ النهج الذي رُسم لك" !

لذلك كان يؤدي هزيل دور الزعيم العظيم ببراعة.. لا يخرج عن النص الذي رسمه له سمسار.. لا يفكّر في التجديد؛ فهو يعلم أنه بلا شك سيخطئ، إن حاول التفرد بالزعامة

إنه أضعف من أن يفكر.. لكنه ليس أغبى من أن يحاول تمكين حَدْسه.. بأن سمسار سيقضى عليه ذات مرة ليتفرد بالزعامة.. عليه أن يسبقه بخطوة، وألا يظهر مخاوفه.. عليه أن يعرف السر الذي جعل سمسار متميزا عليه بذكائه وبقدرته الرهيبة على السيطرة على كل شيء!

(٥)

تخيّل أن تتغير حياتنا بسبب رجل أحمق، ليس أكثر من بشر مثير للشفقة!

لقد حولنا مارتن إلى أمساخ.. فلا ارتقينا لبشر، ولا بقينا كفئران.. لقد قُتلت أمهاتنا واستُؤصلت أراحمهن.. وسُرقنا أجنّة لأجل رغبة مجنونة لدى رجل سخيف!

إلى الآن، لم أستطع نسيان شكل الفئران التي ولدت دون فَرْو.. ولا إخوتنا الفئران الذين يعدمون بغاز ثاني أكسيد الكربون.. الذي

يخدّرها خلال ثوان معدودة ثم يُميتها.. هل فكر يوما كيف تفكر الفأرة عندما يضع إنسان يده عليها؟!.. هل علم يوما أننا نخاف من البشر أكثر مما تخاف منا البشر؟!

هل فكر أننا نكره أَشِعَّةَ الشمس والضجيج، وتُرْبِكُنا الرو ائح الغريبة؟!

الجميع يقول: رائحة الفئران كريهة.. وماذا عن رائحة الفساد التي ينتجها البشر...؟!

ماذا عن الاعتداءات اليومية...؟!

ذلك الأحمق مارتن لديه ميول عُدو انية.. على ما يبدو.. إنه رجل حُرم من طفولة طبيعية وعومل بطريقة مسيئة في صغره.. ربما أُعتُدِيَ عليه عدة مرات فأصبح بدوره معتديًا..

تخيل: أمثال مارتن كثيرون.. وربما مارتن هو أفضلهم.. لقد كان أسيرًا لفكرة مجنونة.. الرغبة ةةةالرغبة في البقاء.. لقد كان يحاول فعل شيء لأجل أمته..في البقاء.. لقد كان يحاول فعلأجل في في البقاء.. لقد كان يحاول فعل شيء لأجل أمته..

كثيرا ما أفكر.. لماذا أشعر بشعور غريب تجاه مارتن لا يمكنني تفسيره؟!

استعد يا هزيل.. حان وقت تقويم الأمور!

(٦)

البالوعة القذرة تزداد ازدحامًا.. الفئران.. تتزاحم.. تتشاجر.. الر ائحة النتنة تصل إلى الأُفُقِ فتُحيلُ السماء إلى بُثُورٍ مليئة بالقَيْح.. حياة مقزّزة..

والبشر لا تريد أكثر من أن ينتهي كل هذا الألم فقط.. أن يحترقوا جميعا.. أو أن يسلبهم الموت واحدا تلو الآخر!

هل يفكر هزيل في حل لهذه المهزلة؟!

المشكلة أنه لا يفكر.. ولا يحاول أن يجرّب..

يتحرك بدون خطة.. المجانين إما أن يصنعوا معجزة ما.. أو أن يفسدوا كل شيء.. إن كل شيء ممكن، ولا يمكن التكهُّن بالأمر.. ولأنه لا توجد خُطة ليُقام ضدها خُطةٌ مضادة ..لا خيوط ولا قضية.. ولا أحلام وأشياء منتظرة، ولا ماضٍ ولا حاضر!

فقط هناك عبث.. ولا شيء غير العبث!

(٧)

كان والد مارتن من عمّال المناجم، الذين صدمتهم فرقعة ديناميت مفاجئة.. فأصيب بنسيان جزئي للموقف الصادم، ثم أصابه هَلَعٌ شديد، وتشوّش انتباهه وتداعى كُلِّيّة، ومات بعد ثلاثة أيام تماما، مثل أغلب مصابي التمزّق أو الصَّدْعِ النفسي!

وكانت والدة مارتن من ذلك النوع من النساء، اللاتي لا يمكنهن العيش بمنأى عن كل اهتمام.. لذلك أودعته أحد الملاجئ، آملةً أن يحصل ابنها على الحب، الذي لم تكن تستطيع أن تقدمه له، وهي ناقمةٌ على وضعها الجديد.. كانت ستقدم له الحب مخلوطا بالمذلة.. مضافا إليه

الكثير من اللوم والتأنيب.. كانت ستعيد على مسامعه دومًا، أنه عقبتها الوحيدة في طريقها نحو السعادة!

صدمة أخرى تعرض لها مارتن، وهو بسنّ الثلاث سنوات بعد صدمة فقد والديه وخروجه من رحم والدته.. صدمته حياته الجديدة في الملجأ.. فأصبح عاشقا للصدمات.. يتسبب في صناعة الحوادث لينال منها الأذى! ولأنه لا أحد يرغب في التقرب من روح مُنْهَكة.. تُرك مارتن لنفسه.. يتجرع جوعًا، وظمأً، وكمدًا وفقدًا.. ولم يجد متنفَّسًا أفضل من صداقته المدَّعاة بالفئران التي تسكن بين شقوق جدران غرفته.. ولا صديق مزعج أكثر من ضفدع ينعِق طوال الوقت، مدعيًا أنه كان أميرا آخر في قصة أخرى.. ولا لذة أكثر من استمتاعه بتحطيم الجنادب الهشّة الضعيفة!

إن مارتن مريضٌ نفسيٌ بدرجة ممتازةٍ.. يتخفى خلف قناع رجل علم.. ولا أحد يعلم كم التجاوزات التي تجاوزها طيلة حياته.. ولا أحد يعلم استخدامه لحمضه النووي في تجربة الفئران البشرية.. ولا أحد كان يتوقع الخرابَ الذي سيحدث، لو نجحت تجربة مارتن الأخيرة!

(٨)

يحاول سمسار تلقين هزيل الخُطبة التي سيلقيها، بعد مغيب الشمس، على سكان البالوعة القذرة، قبل خروجهم الليلة ككل ليلة على السطح!

- كرّر ور ائي يا هزيل!

"يا شعب البالوعة العظيم.. لقد عانينا جميعا من الظلم.. وتمّت معاملتنا

بطريقة غير شرعية.. لقد قدّموا لنا السم، وصنعوا لأجلنا المصائد.. وتركوا علينا القطط لتتسلى بأرواحنا.. يا شعب الب يا شعب البالوعة العظيم.. حان وقت ترك البالوعة القذرة للأبد، والصعود على سطح الكرة الأرضية، والعيش برفاهية، و إثارة الرعب في قلب الجميع"!

قبل أن ينتهي سمسار من حديثه؛ قاطعه هزيل:

أنت تدعو إلى مذبحة!

- لا تقلق، لدينا عدد كبير من الفئران البشرية.. فليمت من يموت، والبقية الباقية ستتكاثر بسهولة.. الكوكب لنا.. أيام البشر الأخيرة على هذا الكوكب معدودة!

- أنت تخالف سنة الكون!

- أنا؟! ماذا عن ذلك الأحمق الذي تلاعب بنا.. لم يتركنا فئر انًا، ولم يجعلنا نرتقي لبشر..

لا تحاول فعل شيء آخر يا هزيل، وإلا سوف تتحمّل وحدك العو اقب.. احفظ الكلمات جيدا، ولا تحاول الخروج عن النص!

يخرج سمسار تاركًا خلفه هزيلًا الذي بدا وكأنه سوف يفعل شيئا أخرق!

يفكر.. ذلك الأحمق هزيل سيفسد كل شيء.. ذلك الأحمق لديه مشاعر.. وهذا ما جعلني متميزًا عليه بذكائي، وبقدرتي الرهيبة على

السيطرة على كل شيء!

لا داعي للقلق.. هناك دوما خطط بديلة!

(٩)

وقف هزيل أمام شعبه الذي ارتضاه ذات يوم زعيمًا.. قلّب عينيه بين الوجوه..

تساءل: هل تستحق هذه الفئران أن يضحي لأجلهم؟!

ارتسمت ابتسامة على شفتيه.. ربما يخرج من بينهم، من يحمل الشعلة، ويسير بالجميع نحو مستقبل أفضل!

بدأ خطبته:

"يا شعب البالوعة العظيم.. أشعر بما تشعرون به.. تشعرون بالخوف.. بالازدحام والرغبة في رفاهية العيش.. تفكرون كثيرًا بالغد.. تقضون أيامكم في التفكير.. ولا شيء يحدث.. ولا شيء قد يحدث.. يا شعب البالوعة العظيم.. إنما أدعوكم إلى الصبر، وعدم استعجال الأمور والخوض في المجهول"!

في خِضَمِّ إنصات الجميع، ووسط الكثير من الحضور.. لو سقطت إبرة الآن لسمع الجميع ارتطامها.. يصدح سمسار بالصوت:

"يا شعب البالوعة العظيم.. لقد اكتشفت توًّا أن زعيمنا هزيلٌ خائن.. لقد تعاونَ مع البشر والقطط، وقبض منهم الثمن.. لدي الكثير من الأدلة.. وسأقدمها للمحكمة؛ ليحظى بمحاكمة عادلة.. اقبضوا عليه وضعوه في مصيدة الفئران التي صنعها من أجلنا البشر"!

لم يتفاجأ هزيل بسمسار.. ولا بشعبه العظيم الذي قلب كتاب التاريخ رأسًا على عقب.. اقتربت من هزيل مجموعة لا بأس بها من الفئران.. قاموا بتقييده ووضعه في المصيدة..

يصرخ هزيل بكلماته الأخيرة:

"يا أبناء الرغبة في الوجود، والرهبة من الفناء.. عندما تشرق عليكم الشمس ستفنون جميعا"!

سمعوا وكأنهم لم يسمعوا.. جلس هزيلٌ في مصيدته يراقب الوضع الجديد.. يراقب مبايعة الفئران للزعيم الجديد.. سمسار..

يسمع صوتا خفيا يناديه:

"سيدي هزيل أنا خادمك المخلص.. رماح.. مُرني بما تريد، و أنا رَهْنُ إشارتك"!

يهز رأسه نافيا: "أشكرك، لم أعد أرغب في شيء"!

- سيدي.. لماذا لم تحاول الدفاع عن نفسك؟

- ماذا سيحدث لو حاولت.. على الأرجح إنهم لن يصدقوا.. إنهم لا يريدون الحقيقة ولا يبحثون عنها.. إنهم يريدون شيئا واحدا هو الراحة!

- على الأقل.. لماذا لم تجرب؟!

- لا أريد عرقلة النهاية.. للأسف لقد استحقوا هذه النهاية!

(١٠)

قاد سمسار شعبَه إلى السطح.. حيث الحياة الكريمة بظنهم.. إنه مستمسك بكثرتهم.. وبقدرتهم الهائلة على تحدي الموت، والقدرة على البقاء.. لم يكن يظن، ولو لمرة، أنه قابل للفناء.. مثله مثل من يملكون القوة، والجاه، والمنصب، والنفوذ، والأتباع السُّذَّج الذين لا يفكرون يوما في التفكير.. يظنون أنهم لن يُهزَموا أبدا.. قاد سمسار شعبه بعد غروب الشمس إلى الحياة الكريمة بزعمهم.. ولرغبة حقد دفينة أصرّ أن يحمل معهم هزيل المسجون في المصيدة التي صنعها البشر.. نكاية فيه وفي كل من سيفكر يوما في مجرد المحاولة في التمرد.. كانت ليلة رهيبة لم يَرَ مثلها البشر.. أشد مما فعله هتلر.. وأعظم مما خلفته خلفها الهجوم النووي على هيروشيما ونجازاكي.. إنهم في أشد مو اقف التاريخ بشاعة ورعبًا.. لقد ارتدوا ملابس الحداد.. ودفنوا أحبابهم أحياء.. يحفرون مقابر جماعية.. من يحبّك أكثر سيضع على رأسك التراب.. إنها لتضحية عظيمة أن تؤخّر موتك لدقائق معدودة، بينما أنت منشغل بدفن ابنتك أو زوجتك أو والدتك.. أنت مُمْتَنٌّ لأن الفئران لن تقضم ذراعك و أنت حي.. ممتنٌ للوقت الذي لن تقضيه في النحيب على فقد الأعزاء.. ممتنٌ لأنه لديك فرصة في الموت!

إنه الطوفان.. والبقية الباقية من الكرب والموت.. يتقدم سمسار بحُبور وسعادة.. من كان يظن أن يهلك البشر بصنع البشر؟! من كان يظن أن تنهدم الحضارات على يد الفئران البشرية.. كل هذا وهزيل ينظر ويتسائل.. هل هذه حقا هي النهاية؟!

تشرق الشمس، ولا شيء مما تنبّأ به به هزيل قد حدث.. مات الخوف في قلب الفئران البشرية!

سألوه متهكّمين: لماذا لم تتحقق نبوءتك يا هزيل؟

لم يرد هزيل على تهكماتهم.. يعلم يقينا أن الشمس تربكهم والضجيج يثير جنونهم.. فيتحركون بعشوائية دونما أي وجهة!

هل فني نصف البشر؟! تقريبا على أقل تقدير.. يفكر هزيل.. لو أن إخوته من الفئران البشرية قادرة على النجاة من الهلاك.. لو أن أكثر كوابيس البشر تتحقّق.. فتصبح الفئران عِلْيَةَ القوم، بينما يتحول البشر إلى عبيد.. لو نستطيع وضعهم في مصائد بشرية، أو إلصاقهم بلاصق شديد القوة، أو إجراء تجارب مخبرية على هؤلاء البشر!

لن يسمح له سمسار بالموت.. هو على يقين من ذلك.. سيتركه ليرى انتصاراته الكبيرة.. ويرى انعكاس نجاحه في عينيه.. عندما اطمئن الفئران إلى النصر.. أقاموا حفلا صاخبا على مقابر البشر الحديثة السُكنى.. فرحين.. بما ظنوه حقا لهم.. متحدّين النواميس والطبيعة!

ذبذبات عنيفة تظهر من مكان ما.. تجوب الأرجاء.. تفقد الفئران قدرتَهم على السيطرة على تصرفاتهم.. تثير جنونَهم.. يحاولون الهرب.. يتحرّكون بفَزَع.. منهم من يُلقي بنفسه في المياه.. منهم من يجد نفسه في ثوان يحترق داخل النيران.. تفطن البشر إلى الطريقة الوحيدة للخلاص.. قاموا بمهاجمة الفئران المشتّتة الانتباه.. قتلوا من شاؤوا منهم كسمسار الذي فقد حياته بدهسة حذاء، ومنهم من استطاع

الهرب والعودة إلى البالوعة القذرة.. لم يتبقَّ على السطح إلا الفأرهزيل الذي بقي وحيدا في المصيدة.. ظهر الرجل الذي يحمل الجهاز الذي يبثُّ هذه الذبذبات العنيفة إلى ما تبقى من البشر ! قاموا بتحيّته:

"أنت إذن، صاحب المعجزة الذي خلصنا من الفئران البشرية".

- أنا المخلّص.. اسمي العالم مارتن.. جئت كهدية لأخلص الجميع من الفئران البشرية ! - أنت قائدنا يا مارتن.. أنت مخلّصنا!

- اسمحوا لي أن آخذ هذا الفأرالبشري؛ لأقوم بدراسة الطفرة الجينية، التي جعلتهم بهذه القوة.

يقترب مارتن من الفأرالهزيل هزيل.. يبتسم ابتسامة ماكرة.. يهمس له:

"أنت هو الدليل الوحيد المتبقي على وجود الفئران البشرية.. ستسكن معي مختبري لأكمل ما بدأت به.. لن أسمح في المرة القادمة بتكرارنفس الخطأ"!

بعد أن عاد إلى البالوعة آخرما تبقى من الفئران البشرية.. سدتْ الفئران كل المنافذ الممكنة للهروب من البالوعة.. انكمشوا خائفين مذعورين مما حدث ..قال لهم رماح:

"يا شعب البالوعة العظيم.. لقد ولدنا لنكون هنا... لا خلاص ولا مَناص.. سنظل نحكي التاريخ للمواليد الجدد.. علينا أن نحذرهم من خطر الطموح.. من خطرالرغبة في الرفاهية.. من خطرالمقاومة.. من خطرالتحدي والرغبة في التغيير.. لقد ولدنا لنكون نحن سكان البالوعة القذرة"!

(١٣)

قصة " حسرة"

بعد أن أحرقنا الجدران.. ركِبنا مكنسة الساحرة الشريرة.. ذات القوى غير المحدودة..

لأول وهلة كنت مأخوذة بالحرية المطلقة.. وتحرري من المسؤوليات العتيدة.. ثم بعد أن ابتعدت بعيدا جدا.. وطِرْنا عاليًا جدًّا؛ اكتشفت أنه لا قيمة للحياة بدون العلاقات الإنسانية.. فطلبت من الساحرة الشريرة إعادتنا إلى حيث الجدران المحترقة!

تحدثت إلى الشرّ الجالس بجواري: "هل ستتركها دائما تتخذ عنك قرارتك؟!.. كان قرار الصعود من نصيبها، والآن قرار العودة من حقك"!

ينظر الشرّ الجالس أمامي إليّ.. يجدني مُرْتَبِكةً.. أُخفي تفاصيل أنا أعلم في قرارة نفسي أنه يعلمها.. يخبر الساحرة الشريرة: "لديها أمور معلقة.. دعيها تعود"!

بينما هو يفكر في قرارة نفسه: "هل نسيَتْ القلادة السحرية مكان الجدران المحترقة.. لا خلود ولا مجد بدونها"!

أنظر إليه بإمتنان.. ينظر إلي بعيني لديهما الرغبة في الثأر.. لأنني أضعت بغبائي الكثير من الوقت.. ننزل أنا والشر عن المكنسة السحرية.. تنظر إلينا الساحرة الشريرة بنظرة إلى الآن لم أفهم معناها.. أُزيحُ عيني عن عينيها..

نزولا إلى رقبتها.. فأرى شيئا لامعًا يزين رقبتها... نفس القلادة التي عدت من أجلها.. تطير الساحرة الشريرة.. يسألني توأمي الشر:

"ألا تذكرين أين أسقطتِ القلادة؟".

- أذكر أنها كانت هناك!

أقلب الرماد وما تبقى من الجدران بحثا عن قلادة غير موجودة.. أقول له: "ربما حولتها النيران إلى رماد؟".

يجيبني: "لم لا؟.. بحماقتكِ أضعتِ المجد وبددتِ سبل الخلود؛ سأفنى قريبا لأتركك وحدك تعيشين بين بقايا جدران وحسرة"!

ولأننا فقدنا طريق العودة؛

سنظل عالقين في مخاوفنا!

كأي ضفدع!

لست أدري.. كان لدي.. ضفدع.. وكنت أحدّثه كل يوم.. على أمل أن يكون هو الأمير المسحور.. لكن الضفدع.. ظل ضفدعًا.. حتى توقفتُ عن انتظار أن يتحول إلى أمير..

في ليلة لاحظت اختفاء نقيقه.. تفحصت موقعه الكائن بجوار البئر.. لم أجده لكنني وجدت رسالة منه:

"الليلة تحديدًا عند اكتمال القمر، سأتحول إلى أمير وسيم.. وسأبحثُ عن أميرتي التي وصفتها لي العر افة.. سامحيني وتأكدي أنك ستحظين بضفدع أفضل مني"!

عالم غريب!

ما أسمعه مرعبٌ، وما أراه مرهقٌ.. لو تآمر مع أذنيك لن تستطيع العيش بسلام بعد علمك بهذه المؤامرة!

لن أكون قاسيا.. لن أخبرك أبدا..

لن أخبرك أن هناك كائنا فضائيا يقف وراءك.. يقلد حركاتك؛

فيضحك أصدقاؤه الفضائيون!

لن أخبرك أن فرشاة أسنانك، تمشّط بها إحدى هذه الكائنات صلعتَها الآن!

لن أخبرك.. حتى لا أثير رغبة معدتك في التقيُّؤ..

لكن إحدى هذه الكائنات الفضائية جرَّب مَضْغَ هذه الفطيرة قبل قليل..

لكنها لم تعجبه فأعادها إلى مكانها!

نعم نفس هذه الفطيرة التي تتناولها الآن!

آخر رغيف على كوكب الأرض!

قالت لي:

"ستقتل أخاك؟".

- ماذا؟! يستحيل.. لا أصدقكِ.. يستحيل أن يكون هذا مستقبلَنا.. أرجوك من فضلك، اسألي آلة الزمن مرة أخرى.

- ستتقاتل مع أخيك على آخر رغيف خبز مُتَبَقٍّ على هذه الأرض.. سوف يكون لك الغَلَبَة.. ستسقط دماء أخيك على رغيف الخبز المتبقي.. ستأكله.. ستشبع.. ستجوع بعد أيام قليلة.. ستكتشف أنك آخر من تبقى على وجه الأرض.. ستعود إلى جِيْفةِ أخيك لتأكل شيئا يَسُدُّ رَمَقَك.. لتجد أن الدُّود قد سبقك إليها.. يقترب منك الدود و أنت بائس وحيد!

تقول الدودة الأم لبقية الديدان: "هيا لنأكله حيًّا.. لا تنتظروا موته.. إنه متعفِّنٌ منذ وقت طويل"!

نافذة من حَجَر!

لم يكن في منزلنا نافذة.. رسم لي نافذة.. أخبرني أنها تُطِلُّ على البحر.. في الخارج أولاد يلعبون.. ومَوْجٌ يأتي مسرعًا ثم يتراجع.. ربما طرأ له طارئ.. ونَوْرَس يتسلى بالصيد..

صدّقته.. في البداية كنت فَرِحةً بنافذتنا المرسومة.. أمسح عن زجاجها المرسوم غبار الوقت.. كنت أحاول اختلاس النظر.. عبر الجدار القديم المتهالك.. شيء ما يسحب الضوء تجاهه.. إنه الحجر!

و أنا التي لو أستطيع الخروج.. لخرجت.. لكن منذ اغتيال الصغير و أنا أخشى البشر..

مع كل فجر أصبحتْ رسوم النافذة تَبْهَتْ.. تتحول تدريجيًّا إلى خيط....يلتفُّ حول رقبتي يخنقني.. يجعلني أعتصر عجزا.. بينما.. لا شيء يبدو مخيفا أكثر من أنْ أكتشف أنّ هذه النافذة لا تُطِلُّ على بحر.. تُطِلُّ على شاهد قبر ابني الصغير!

الجثة التي لم تتحلَّل!

هو الذي انتهى ولم تنكشف أسراره لأحد.. وبينما كان يغوص وحده في الرمال المتحركة..يتحدث إليه كل شيء... تتحدّث إليه صخرة بعيدة.. أو تناديه سحابة غاربة.. ربما هو واهم.. ينظر إلى جَمَلِهِ الآمن بعيدا عن مُجْرَياتِ الأحداث.. وبينما كان الاستعمار يهدم حصونه ويستولي على قلاعه.. رأى نفسه يُغْمِدُ السيف في قلب آخِر مستعمر.. محذرًا إياهم من العودة.. تسقط رأس المستعمر ويفقد بريق عينيه ..يبتسم صاحبُنا.. بينما تغرق قدماه في الرمال المتحركة.. يتذكر بغصة وحرقة.. الحقيقة.. المستعمر لا يزال يسكن داره.. وستصله بعد قليل الجمالُ المحمَّلةُ بالضريبة التي دفعها رغمًا عنهم أصحابُ الأرض..

والتي حصلها صاحبنا لصالح المستعمر!

تصل الرمال إلى رقبته.. يبتسم:

"ربما في مكان آخر من الوجود.. يرحل المستعمر.. لو لم يكن في وطني خائن مثلي"!

تبتلعه الرمال.. يختفي غير أن درجة الحرارة العالية ستحنّط جسده.. حتى تلفِظه الارض ذات استقلال.. في مكان آخر من الوجود ليولد مستبد آخر.. عظّموا معنا الجثة التي لم تتحلّل!

شبكة عنكبوتية!

لقد علِقنا في شبكة العنكبوت.. نحاول تخليص أنفسنا.. لكن لا مفرّ.. العنكبوت الكبير قادم.. سيقوم بابتلاعنا.. لا مفرّ.. تسقط دموعنا.. نغمضُ أعيننا لنفوّت مشهد النهاية..

الشبكة تهتزّ.. تسقط!

يموت العنكبوت تحت قدمي ربة المنزل!

نشعر أننا تحرّرنا معشر الذباب!

نشتمّ رائحة غريبة.. رائحة سمّ.. نموت.. اختناقًا برائحة مبيد الحشرات!

العنكبوت مات قبلنا!

طعم الموت الآن بشكل أو بآخر يبدو مقبولا!

لم يستطع انتظار العيد!

إنه يَتْبَعُنِي.. أشعر به.. أشتمّ ما تبقى من رائحته.. أكاد أَجْزِمُ أنني أسمع خطوات نعله.. أنظر خلفي.. الشارع فارغ من كل عابر.. أنظر إلى زجاج المحلات العاكس.. أراه يتبَعُني.. أبتسم له عبر الزجاج العاكس.. يبتسم لي.. أتابع خطواتي.. ويتابع خطواتي..

منذ وعدته بشراء ملابس جديدة للعيد.. وهو يتبَعُني .. ماذا بوسعي أن أفعل.. لقد تأخر العيد.. وهو لم يستطع انتظار حلول العيد!

لا يزال في الثامنة من عمره.. لا يزال طفلًا جميلًا.. رغم مرور عشر سنوات.. وهو يأتي إليّ في هذا الموعد.. ليذكرني بوعدي.. و أنا ككل عام أشتري ملابس جديدة للعيد.. أُهديها لأي طفل من أطفال الشوارع!

ختامًا

- كنتُ أتمنى أن يُهديني فستانًا مصنوعًا من الحرير.. لكنه عوضًا عن ذلك أهداني دودة القَزّ.. لقد كان يريدني أن أتعلم الصبر!

- وهل تعلمت الصبر؟!

- لا.. فقد ماتتْ دودة القَزّ!

نبذة عن المؤلفة

فاطمة الزهراء الحسيني محمد عبده.. حاصله على بكالوريس الطب و الجراحة من كلية الطب- جامعة المنصورة- دفعة ٢٠١٢.. و تعمل حاليا كطبيب مقيم لأمراض الصدرو الحساسية بوزارة الصحة المصرية

صدرت لها المجموعة القصصية القبر المنسي عام ٢٠١٧

و اشتركت في العديد من المجموعات القصصية " الأكواريوم – حواديت – الفتيات لا تحب فصل الربيع- وجوه آيله للسقوط – ملحمة القلوب "

للتواصل مع المؤلفة

عن طريق صفحة الفيس بوك

www.facebook.com/zahraa.alhussaini

أوعن طريق الايميل

dr.zahraalhussaini@gmail.com

الفهرس

المقدمة	٥
بعيدا عن القصف	١١
دُمْيَتي التي تعرف كل شيء!	١٧
ظلّ شَبَح!	٢٧
و أنا حضرت.. لأكملك!	٣٥
باقة ورد ممزّقة!	٤٥
بكاءُ الصيفِ الحزينِ!	٤٩
صاحبة الفستان الأزرق!	٥٣
حب مع كثير من الدَّسَم!	٥٥
الطفل الذي قطف الزهور!	٥٩
ربطة عنق جديدة!	٦٣
لا تغادري سريرَك!	٦٩
ابنتنا ثورة!	٧٥
لقاء في الهاوية	٧٧
أعيدوا لي كبدي!	٨١
الطفل الذي فقد رأسه!	٨٣
سقوط اضطراري في وادي العميان!	٨٥
للزهر شوكٌ يحميه!	٩٧

الأشباح في مدينتنا خائفة!	٩٩
ضحايا الاستسلام!	١٠١
الحديقة السرّية!	١٠٥
شعب البالوعة العظيم	١٠٧
حسرة	١٢٣
كأي ضفدع!	١٢٦
عالم غريب!	١٢٧
آخر رغيف على كوكب الأرض!	١٢٨
نافذة من حَجَر!	١٢٩
الجثة التي لم تتحلَّل!	١٣٠
شبكة عنكبوتية!	١٣١
لم يستطع انتظار العيد!	١٣٢
نبذة عن المؤلفة	١٣٤
الفهرس	١٣٥
رسالتنا	١٣٨

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

Gmail arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook facebook.com/arabiclibrary2017